شخصيات مجمعية

في الساعة الخامسة من مساء السبت ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ الموافق ٥ من مارس سنة ١٩٧٧ أقام المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع حفل تأبين المغفور له الأستاذ أنيس المقدسي عضو المجمع من لبنان .

وفيما يلي ما ألقي في الحفل من كلمات :

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

في تأبين المغفور له الأستاذ :

أنيس المقدسي

سيداتي . سادتي

لقد فقدنا شيخا جليلا ، من شيوخ الأدب واللغة ، ورائدا من الرواد الأول هو الأستاذ أنيس المقدسي .

والموت نقاد على كفه
جواهر يختار منها الجياد

فقدناه قبيل مؤتمرنا ببضعة أيام ، وقد كان حريصا دائما على أن يشترك معنا فيه بنفسه ، أو بما يقدمه من بحث ودرس . حظينا بزمالته منذ عام ١٩٦١ ، وطوال خمس عشرة دورة من دوراتنا المتلاحقة لم يتخلف إلا عن دورة واحدة ، هي الدورة الأخيرة التي حالت أحداث لبنان الأليمة دونه والاشتراك فيها . ففي أربعة عشر مؤتمرا أسهم بأربعة عشر بحثا ، فيها عمق ودقة ، ورأي وتوجيه . والمقدسي باحث طويل النفس ، يصدر عن خبرة واسعة وزاد وفير ؛ فيفصل القول فيما يعرض له ، ويحلله ويؤيده بشواهد وأسانيد ، يستمسك بالماضي ويقيد بالحاضر ، ويؤاخي بينهما ، ويمهد بهما للمستقبل . وكان على شيخوخته وكبر سنه أميل إلى الابتكار والتجديد . وتكاد تنقسم بحوثه الأربعة عشر قسمة متعادلة بين الأدب واللغة .

ومن بحوثه الأدبية الموجهة محاولته ربط التاريخ بالأدب ، وهي محاولة ما أجدرنا أن نفيد منها ، وأن نتوسع فيها . وقد تخير لها مثلا رائعا ، هو « رسائل ابن الأثير » التي عاش معها زمنا طويلا وقد شاء بحق أن يستخلص منها قدرا من تاريخ الدولة الأيوبية السياسي والاجتماعي . وابن الأثير وثيق الصلة بالأيوبيين ومن أعرف الناس بأسرارهم ودخائلهم .

وللمقدسى دراسة أدبية أخرى وصفية وتحليلية عن الشعر الغنائى ، بواعثه فى الشرق والغرب فيما بين القرن التاسع والقرن العشرين . والشعر الغنائى من أوسع أبواب الشعر المعاصر ، وجدير بأن نقف عنده وأن ندرسه وزناً وقافيه ، هدفا وموضوعا.

وفى آخر حديث له معنا يعرض فى إسهاب « للشعر الحر» وهو من مستحدثات الأدب المعاصر وقد أدلى فيه بآراء إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن ابن التسعين يبدو أفسح صدرا ، وأقل تزمتا من ابن العشرين .

* * *

وأما بحوثه اللغوية فيعالج فى بعضها المولد والدخيل فى لغتنا المحلية ، وفى معاجمنا الحديثة ويبرهن على أن اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، وقد أعطت العربية بقدر ما أخذت ؛ وفى بحث آخر مسهب يسجل المقدسى ما أخذته الإنجليزية عن العربية قديماً وحديثاً ؛ ومتى يثبت لغة لفظاً أجنبياً أصبح ملكاً لها ، وتصرفت فيه تصرفها فى ألفاظها الأصلية .

وفى بحث طريف يعرض فقيدنا لأثر الزمن فى اللغة . وهو يرى أن اللغة ، وإن كانت ملكة إنسانية ، لا تخضع للإنسان وحده ، بل تؤثر فيها عوامل شتى ، أخصها الزمن تسير بسيره وتتطور بتطوره ، وقد نرقنا بين أدب جاهلى ، وأدب إسلامى ، وآخر عباسى ولا يقف تطور اللغة عند كسب ألفاظ وتعبيرات لم تكن معروفة ، بل الألفاظ نفسها تأخذ دلالات جديدة ونقلا عن ابن قتيبة ، يقدم المقدسى نماذج من ذلك ، كلفظ الطرب الذى كان يدل أصلا على خفة تصيب الإنسان لشدة الفرح أولشدة الجزع ، ثم قصر على الفرح ، وكلفظ « المأتم » الذى كان يدل على اجتماع النساء فى الخير والشر ، ثم أريد به المصيبة والوفاة لاغير . ولا شك فى أن المعاجم التاريخية تكتشف عن تطور المدلولات على مر الزمن . ويرى المقدسى أن من الظلم أن ترمى العربية بالجمود ، وهى بالعكس حية ومتجددة ، متجددة فى ألفاظها وأساليبها ، متجددة فى معانيها ومدلولاتها .

والمقدسى ، وقد عاش معنا خمس عشرة سنة ، وقف على جهود مجمعنا وأسهم فيها ، ويرى أنها تدور حول بابين : الوضع والإلفاء فأخذ المجمع على عاتقه وضع معجم كبير ، يجمع بين دفتيه ما حوته أمهات المعاجم القديمة مضافاً إليها ما تولد على توالى الأجيال ، من ألفاظ اقتضاها تطور الزمن وتقدم العلوم وأساليب الحضارة فى العالم العربى ، وهذا عمل طويل النفس . وإلى جانبه معاجم فرعية لسد حاجات أهل العصر من أدباء وباحثين ، نذكر من بينها : «معجم ألفاظ القرآن الكريم ، والمعجم الوسيط » .

وأما الافتاء فى مسائل اللغة ومشاكلها ، فهو عند المقدسى أهم وأعون على تجديد حياة اللغة والسير بها إلى الأمام . وفى رأيه أن مهمة الإفتاء هذه لم تفت أعضاء المجمع فى كل عهد من عهوده؛ فهم يعنون بمشاكل اللغة وقواعدها . ويهتمون بما يتطلبه التقدم من تعديل بعض وجوهها ، أو إكمال نقصها .

* * *

هذه بعض جوانب أنيس المقدسى المجمعى والحديث فيها طويل . أما أنيس المقدسى الأديب والأستاذ والإنسان ، فيقول كلمة المجمع فيه زميلنا الدكتور عمر فروخ ، وهو فى الوقت نفسه تلميذه وزميله ، ويليه نجله الأستاذ سمير المقدسى يقول كلمة الأسرة . جزى الله فقيدنا خير الجزاء عما قدم لأمته ولغته ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الدكتور عمر فروخ عضو المجمع من لبنان :

أنيس المقدسى أستاذا ومؤلفا وانسانا

ولد أنيس المقدسى فى طرابلس الشام (فى لبنان اليوم) فى نحو عام ١٨٨٠ . وقد ورد فى كتاب « المجمعيون » أن ولادته كانت فى عام ١٨٨٦ . وأما على نعشه فقد جعل عام ولادته ١٨٨٥ . والأصوب إذا نحن نظرنا إلى الأحداث الأولى من حياته أن نعتمد التاريخ الأقدم : ١٨٨٠ .

وبعد أن نال أنيس المقدسى شهادة — البكالوريوس ثم شهادة الماجستير من الكلية السورية الإنجيلية — الجامعة الأمريكية اليوم — فى بيروت ، عين عام ١٩٠٦ م مدرساً فى الدائرة الاستعدادية من الكلية السورية الإنجيلية نفسها . وفى عام ١٩١١ انتدب لتنظيم الدائرة العربية فى كلية أسيوط (فى القطر المصرى) . وفى نحو عام ١٩٢٣ أصبح رئيساً للدائرة العربية فى الجامعة الأمريكية .

وانتخب عام ١٩٤٥ ، عضواً فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ثم انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة عام ١٩٦١ ولقد استمر أستاذاً للغة العربية فى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى أن بلغ السن القانونية رسمياً ، فتقاعد وأصبح أستاذ شرف .

ونال من جمعية أصدقاء الكتاب فى بيروت جائزة رئيس الجمهورية وهى جائزة سنوية تقديرية تمنحها الدولة اللبنانية بوساطة جمعية أصدقاء الكتاب لمؤلف لبنانى تميزت كتبه بالجودة ، وهذه الجائزة يمنحها أعضاء الجمعية بالإجماع ؛ ولا يقبل فيها التصويت بالكثرة أو بالغلبة .

وكانت وفاته يوم الخميس فى السابع عشر من شهر شباط / فبراير من العام الجارى ١٩٧٧ . ولقد ظل نشاطه الجسمى ونشاطه الفكرى وافرين إلى أواخر أيامه وكثيراً ما كنت ألتقى به فى مكتبة الجامعة الأمريكية فى بيروت يراجع مصدراً أو يحقق كلمة أو يجمع مواد لكتاب جديد أو لمقال مفيد . وكنت إذا زرته فى بيته ألفيته مكباً على الكتاب بلا ملل . وبرغم القتال الذى دار فى لبنان — وفى بيروت خاصة — فى السنوات الثلاث الماضية ، فإنه لم يترك زيارة مكتبة الجامعة الأمريكية ، مع أن مكتبته الخاصة تضم مصادر وافية ومراجع كثيرة .

ولقد اخترت أن أتكلم على أنيس المقدسى من زوايا ثلاث : أستاذاً معلماً ومؤلفاً باحثاً وإنساناً رضياً .

لصلة الأستاذ بطلابه وجهان : سلطان العلم ورفقة فى طريق العلم . وكان أنيس المقدسى أباً لطلابه شفيقاً، ودليلا يشق لهم طريقاً، ثم يدعو كل واحد منهم إلى أن يطوى المسافة التى يستطيع طيها . فى عام ١٩٢٦ كنا ندرس عليه الشعر العباسى ، فعهد إلى نفر منا منذ مطلع العام الدراسى ، بأن يختار كل واحد منهم عدداً من القصائد لشاعر عباسى من أولئك الذين كان هو قد عزم على تدريس أشعارهم ؛ ولقد دخل بعض هذه القصائد فى كتابه « أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى » . وما كان أنيس المقدسى بحاجة إلى أن يساعده فى عمله ذلك تلاميذ لم تكن سن أكبرهم قد وافت يومذاك على العشرين . غير أن ذلك المسلك كان طريقة صحيحة من طرق التعليم : أن يحمل الطالب الجامعى تبعة ما يعمل، وأن يكون مقامه فى الجامعة — كما يقول ابن خلدون — مزيد كمال فى التعليم .

واقتصر نشاط أنيس المقدسى فى التأليف على تاريخ الأدب العربى ، له : كتاب «أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى » ، وهو كتاب يمتاز بالإيجاز فى استخراج الخصائص من النصوص من غير توسع فى أقوال النقاد ولا تبسط فى روايات مؤرخى الأدب من قدامى أو متأخرين .

وله كتاب « تطور الأساليب النثرية » صدر منه الجزء الأول ، وقف فيه عند الحريرى صاحب المقامات وعند أواخر القرن الخامس للهجرة . ولعل هذا الكتاب أحسن كتبه تمثيلا لجهوده فى البحث الأدبى . ولقد قال فى مقدمة هذا الكتاب إن الغرض من تأليفه كان « عرض الأساليب النثرية عرضاً يبين تطورها منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر » . غير أنه لم يعالج خصائص النثر الجاهلى إلا عرضاً . وقد احتج لذلك بقوله : « وما ذلك إلا لأن المواد النثرية التي هى بين أيدينا من العصر الجاهلى لاتسوغ لنا تناول ذلك بطريقة علمية . وأذكر أيضاً

أنه عالج النثر الإسلامى عامة بكثير من الحذر لاقتناعه بأن الطريق إلى النظر فيه وعر شائك. ولقد كان أشد حذراً لما عالج السجع فى القرآن الكريم . قال : إن السجع كان خاصة من خصائص النثر الجاهلى ، فى وروده فى القرآن الكريم — راجع إلى أن القرآن الكريم قد خاطب العرب بأساليبهم : ولا ريب عنده أيضاً فى أن كراهة سجع الكهان إنما كانت لكراهية الموضوعات والمعانى التى تناولها الكهان ، لا لكراهية ألفاظهم وأسلوبهم المسجوع :

ثم هو يرى أن النثر المطلق من السجع كان موجوداً فى الجاهلية . ودليله على ذلك آيات كثار من القرآن الكريم وردت غير مسجوعة لأن الأسلوب غير المسجوع أطوع لمعالجة أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية . السجع فى رأيه كان — عند الجاهليين — مقصوراً على التعبير عن العواطف الدينية والنظرات الأخلاقية :

ويفرق أنيس المقدسى رسائل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقين كبيرين : الرسائل التى تعالج قضايا دينية واجتماعية تتعلق بالقبائل التى دعاها الرسول إلى الإسلام أو عاهدها عهوداً مؤقتة أو عهوداً دائمة : وهذه عنده أيضاً لا يرقى إليها الشك . ولكنه اعتمد رأياً للمستشرقين فى النظر إلى الرسائل التى أملاها الرسول ليبعث بها إلى الملوك ، فقال إن الإسلام لم يكن قد بلغ بعد فى السنة السادسة للهجرة قوة سياسية أو عسكرية تجعل لتلك الرسائل سلطاناً عند أولئك الملوك :

ثم هو يرى أن أسلوب هذه الرسائل بعيد عن السجع قليلا أو كثيراً .

وعرف أنيس المقدسى مقالة تيودور نولدكه فى القرآن — وقد نشر فى الطبعة الحادية عشرة من دائرة المعارف البريطانية — وهو مقال واف سليم فى مجمله ، ولعل ذلك هو الذى حمل القائمين على دائرة المعارف البريطانية على حذفه من الطبعات التالية. وأورد أنيس المقدسى عددا من أحكام هذا المقال ، من ذلك مثلا أننا اليوم على ثقه من أن القرآن تام صحيح الرواية كما كان فى أيام محمد. وهذا قول كان مستكثرا على المستشرقين فى القرن الماضى. وتكلم أنيس المقدسى على بلاغة القرآن من حيث الاحتباك ودقة الإشارة، ومن حيث حسن الإيقاع وروعة الانتقال وجمال التمثيل . وقد أفاض فى إيراد الشواهد على ذلك كله من الآيات الكريمة .

ونقد أنيس المقدسى رأى نولدكه ؛ وكان مبتولدكه قد زعم أن فى القصص القرآنى إخلالا يمنع القارئ الأجنبى من اجتلاء الوجه الكامل للقصة . فقال فى نقد ذلك :

« من الإنصاف هنا أن نقول : إن نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب إليه من نقد الأسلوب القرآنى (يعنى فى القصص) ، إذن لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصة فى التوراة ؛ فى التوراة حوادث تاريخية تجرى فيها الأخبار مجراها الطبيعى. أما القصص فى

القرآن فحملات روحية لايقصد بها تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيه القصة تذكيرا وتهويلا ... وترد (القصة) مرارا بحسب مايقتضيه الكلام ، وكثيرا ماتروى على سبيل الإشارة والتلميح » .

وله « الاتجاهات الأدبية فى النهضة العربية الحديثه» استعرض فيه أثر الحركات القومية والوطنيه والدينية فى الشعر الحديث خاصة مع شئ من التبسيط فى بعض الأحيان . ثم إن له«الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضةالحديثة» وهو — فى الغالب — دراسة تطبيقية موسعة لكتاب « الاتجاهات الحديثه » .

وله أيضا «المختارات السائرة» وهو مجموع قصائد من العصر القديم ومن الأعصر المتأخرة هذه القصائدكانت قد اشتهرت وسارت على الألسن . ولاريب فى أن بقاءها على ألسنة الأدباء والمتأدبين دليل على قيمتها الذاتية وعلى براعة التعبير فيها.أما فائدة جمعها فى دفتر واحد فراجعة إلى أن العرب اليوم أيضا بحاجة إلى المثل العليا التى تنطوى عليها هذه القصائد وإلى حسن التذوق الأدبى الذى تربيه هذه القصائد فى نفوس الدارسين .

ونشر ديوان ابن الساعاتى،ونشر رسائل ضياء الدين بن الأثير . ومع أن هذا النشر كان قليل الحواشى بخلاف ماكان جمهور الناشرين قد ألفه فى هذا الشأن؛فإنه قدّم فى هذين النشرين أثرين مهمين من تراثنا العربى

وإذا كان التأليف — كما قال العالم الرياضى أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى — ثلاثه أنواع : تأليف ابتكار، وتأليف تصحيح وتأليف تتميم،وإن تآليف أنيس المقدسى تقع فى الفن الثالث من التأليف : فى التتميم مع حسن التقسيم ووضوح العرض .

وعانى أنيس المقدسى فى النصف الأول من حياته نظم الشعر ،وعانى أيضا التأليف القصصى؛ نظم فى جوانب الحياة الوجدانية والخلقية والوطنية، وله ديوان لايزال مخطوطا ونقل ملحمة للشاعرالإنكليزى ألفرد تنيسون عنوانها «الذكرى»وجعلها شعرا عربيا ومن قصصه قصة عنوانها « إلى الحمراء » .

ولكن سرعان ماالتفت عن الشعر إلى النثر فاختط فيه مسلكاممهدا لاتكلف فيه ولاتأنق بل سهولة ووضوح ومنطق. لقد كان أسلوبه وسيلته الوحيدة إلى التعبيرعن آرائهوإلىعرض الأغراض المختلفة فى نطاق من الإيجار ومن السرد الدقيق الوافى .

وأما مقالاته خاصة فقد التفت فيها — فى الحين بعد الحين —إلى الموازنة والمقارنة ، وخصوصافيمايتعلق بالمفردات العربية التى تتصل باللغة الأجنبية أو بالمفردات الأجنبية التى تتصل باللغة العربية؛ فمن بحوثه فى دورات مجمع اللغة العربية: تحقيق لما فى الإنكليزية من الأصول العربية —الدخيل فى لغتنا العربية ودلالته — المولد فى معاجمنا الحديثة .

وكان آخر البحوث له فى مجمع اللغة العربية «الحركة الانقلابية الأخيرة فى نظام الشعر العربى» استعرض فيه أوجها من التطور فى الأسلوب الشعرى، عند أبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى — من حيث الإيغال فى تطلب المعانى ثم جعل هذا الاستعراض مدخلا إلى الكلام على الشعر الحر فى العصر الحديث، ثم أنه لما جاء إلى تقويم هذا الشعر قال :

« ولست أنا من دعاة هذا الشعر أو من الضاربين بسهم فيه ، وقد نشأت فى جو غير جوه؛ وشاركت أول اطلاعى عليه المتنكرين له، لكن ذلك لم يدخل دون رغبتى فى مواصلة الاطلاع لأتفهم ولاتعرف الدوافع التى حملت أربابه على التحول عن الأصالة الشعرية التى عرفناها فى الأدب الحديث .

غير أنه لم يحكم لهذا الشعر ولاحكم عليه بل اختار أن يترك الحكم الفصل عليه للزمن .

* * *

عرفت أنيسا المقدسى ثلاثة وخمسين عاما أستاذا لى ثم صديقا. فى هذه المدة الطويلة التى لم تنقطع صلتنا فى أثنائها قط . ماعلمت عليه من تبديل فى اتجاهه فى الحياة : فلا منصبه فى الجامعة الأميركية فى بيروت صرفه عن الإنصاف مااستطاع ، ولاصراع الأهواء فى لبنان حمله على أن يغمس قلمه أو لسانه فيما كان يمكن أن يجلب له حب قوم آخرين . إنه لوشاء لفعل ولنال على ذلك حظا من الدنيا ومغانم كثيرة .

وكان كثيرا لتواضع رضى النفس لايدخل فى جدال ولايحمل حقدا لأحد، ثم لم يكن لجميع زخرف الدنيا عنده قيمه فى جنب مقال يكتبه ليرضى به نفسه، أو ليكشف فيه عن خاصة ثقافية فى حياة العرب ، ثم إنه كان وطيد الإيمان بالله عظيم الثقة بالعلم شديد الإعجاب بمكانة هذا الإنسان فى هذا العالم الفسيح. كنا مرة فى الطائرة فالتفت إلى يقول: لولا الإيمان بالله والثقة بالعلم لما اطمأن أحد إلى أن يستقل طائرة.

وسمع أنيس المقدسى من أنداده وممن هم دونه نقدا ملفوظا ومكتوبا — وكان قد سمع مثل ذلك كثيرون غيره.—غير أن ذلك كله لم يبدل فيه هو شيئا مما كانت نفسه قد اطمأنت به ، فى حفلة من حفلات الأنس فى الجامعة الأمريكية كان فى البرنامج مشاهد يقلد فيها الطلاب أساتذتهم، ونال الأستاذ أنيسا طرف من ذلك فلم يكن منه إلا شىء من العتاب الرقيق — بعد الحفلة — وإلا كلمات من النصح الكريم ثم نسيان لكل ماكان . وكان لناجميعا من ذلك درس بليغ . إن الغاية من التعليم ليست نقل مفردات المعارف من شخص إلى شخص ؛ وإنما هى بناء الفرد الصالح بجلاء نفسه جلاء يمكنها من أن تعكس جميع مايواجهها من مظاهر الوجود ، هذا مع الإيقان بأن الذى يجلو مرآة لايستطيع فى كثير من الأحيان — أن يجتلى هو نفسه عددا من تلك المظاهر التى تعكسها تلك المرآة الجامدة التى كان قد صنعها هو بيده .

كلمة الأسرة لنجل الفقيد الأستاذ سمير المقدسى :

سيدى رئيس مجمع اللغة العربية الجزيل الاحترام :

حضرات الأفاضل أعضاء المجمع الكرام :

أيها الحفل الكريم :

إنى إذ أقف بينكم اليوم ـ وأنا لست بمؤرخ أو عالم لغة ـ لاأشعر بغربة عن جو هذا المجمع الموقر؛ فبين مجمعكم وبينى روابط قربى . وذلك من خلال أحاديث والدى عنه وعن أهدافه وأعماله، ومن خلال الأبحاث اللغوية التى كنت أراه منكبا عليها حتى الأسابيع القليلة التى سبقت وفاته، ومن خلال أحاديثه عن اللغة العربية وأعلامها. من خلال صور مؤتمرات المجمع العديدة التى اشترك فيها. وأرانى فخورا ومسرورا بأن تتاح لى فرصه الاجتماع والتعرف على أعضاء المجمع الأجلاء، وقد جعلنى والدى أحس أنهم من أهل القربى .

وإنى إذ أترك لعلماء اللغة والأدب تقييم تراث والدى العلمى والأدبى والتربوى فاسمحوا لى بأن أذكر ثلاث ميزات عرفتها فيه: تواضعه بعلمه، وإيمانه بأن حدود المعرفة لاتنتهى؛ إنسانيته لاعتباره أن احترام الآخرين والتمسك بالحق والتزام الخير جميعا من شأنها أن ترفع النفس، وحبه للحياة، الذى لم ينضب حتى اللحظة الأخيرة :

لقد أراد أن يكون معكم هذا العام، كما أراد أن يكون معكم فى الأعوام المقبلة، على الرغم من مناهزته الثانية والتسعين. ولكن كانت مشيئة الله .

فباسم العائلة أتقدم بصادق الشكر وعميق الجميل نحو مجمع اللغة العربية الموقر لإحيائه هذه الذكرى ـ ذكرى صديق لكم غيبه الموت.

وأعرب عن شكرنا للكلمة الطيبة التى ألقاها السادة الكرام: الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع، والدكتور عمر فروخ، أدامكم الله ذخرا للعلم وسندا للضاد وأبنائها .

كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع :

سيداتى، سادتى : فى ختام هذا الحفل أتقدم بخالص الشكر لكل الذين تفضلوا بالحضور إلى هذا المكان، ومشاركتنا حفل تأبين فقيدنا المرحوم الأستاذ أنيس المقدسى تغمد الله الفقيد بواسع رحمته، وأثابه خيرا عما قدم للغة والأدب من أياد بيضاء

وشكرا لكم جميعا، ورفعت الجلسة .

في الساعة الخامسة من مساء الخميس ١٠ من جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٨ من أبريل ١٩٧٧ أقام المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع حفل تأبين المرحوم الدكتور محمد كامل حسين عضو المجمع .

وفيما يلي ما ألقي في الحفل من كلمات :

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع
في تأبين المرحوم :

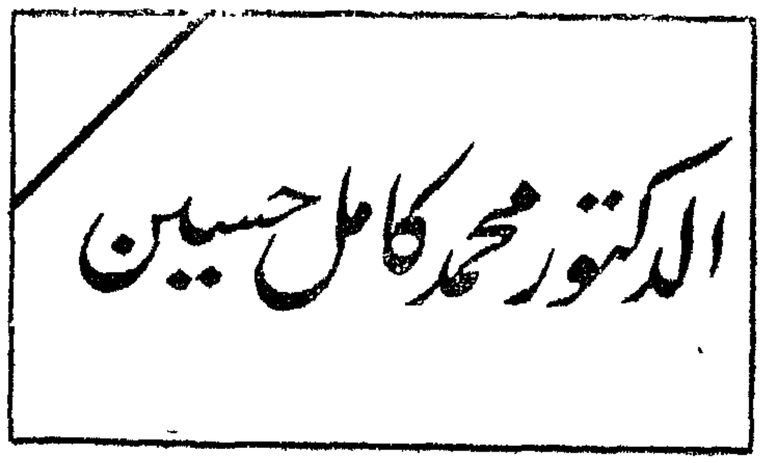

كامل حسين الأديب

سيداتي سادتي :

رحم الله كامل حسين بين الخالدين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه بين الأصدقاء الأوفياء . ولقد عرفته منذ نصف قرن أو يزيد ، وعرفته أديبا قبل أن أعرفه عالماً وطبيباً . وهذه هي الناحية التي أود أن أقف عندها قليلا ، وعرفته من خلال صحيفة أحدثت ما أحدثت من حركة في حياتنا الأدبية والفكرية ، وأعني بها « السياسة الأسبوعية » ، كان يسهم فيها مع قادة النهضة الأدبية المعاصرة حين ذاك. أمثال الدكتور هيكل وطه حسين . واختار لنفسه اسما مستعاراً هو « ابن سينا » ، وسألت عن « ابن سينا » القرن العشرين ، فقيل لي إنه طبيب شاب حصل على بكالوريوس الطب لما يجاوز الثانية والعشرين ، وما إن أمضى سنتي الامتياز بطب القاهرة حتى أوفد في بعثة إلى إنجلتره ، ومن هناك كان يراسل « السياسة الأسبوعية » وينشر فيها بواكير إنتاجه الأدبي ، ولم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة ، بل امتدت إلى « اللغة » ، والبحوث الأدبية ، ولو سمى نفسه « ابن المقفع » ، أو « عبد الحميد » ماعزّ عليه.

وجمعتني وإياه مجالس لطفي السيد ، وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة ، بالعلم والفلسفة ، بالتوجيه والإصلاح . وتمر بنا أمور لها شأنها ، وقلّ أن نفكر في تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضي وعدد المستقبل . وما أشبه مجالس لطفي السيد بمجالس

« الإمتاع والمؤانسة » ، وإن لم تجد بين المعاصرين من بعنى بها ، كما صنع أبو حيان التوحيدى: وكان صوت كامل حسين فى هذا المجلس مسموعا ، وكلامه عذبا — وتعليقه واضحاً ونقده سمحاً . وكان يعرف منزلته بين العلماء والأطباء ، ومع هذا كان حديثه فى تلك المجالس يدور غالباً حول الأدب واللغة والإصلاح والتجديد. ولا أزال أذكر مجلساً منها عقد بقاعة لطفى السيد فى نادى محمد على — نادى التحرير اليوم — على أثر ظهور قصة أديبنا الخالدة : « قرية ظالمة » ، وكان بين من شهدوا هذا المجلس عبد الحميد بدوى ، وبهى الدين بركات . وما كان أشبهه بحفل تكريم منه بمحاكمة أدبية ، وإن لم يخل من تندر رفيق وخشية وتوجس من أن تثير القصة بعض رجال الدين ، وقد سبق للحاضرين جميعاً أن قرءوها ، وقدروها قدرها ، وكأنهم كانوا يتوقعون ما ستحظى به من إعجاب وتقدير لدى كبار الكتاب والمتقفين .

وتوثقت صلتى به يوم أن اختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ٥٢ ، وسعدت باستقباله وقلت فيه حين ذاك : « قل أن نجد من يقبل على الثقافة إقباله ، ويحب القراءة حبه ؛ فلا تكاد تذهب إلى محاضرة عامة فى علم أو أدب أو فلسفة ، إلا وتراه فى مقدمة المستمعين . ولا يكاد يظهر كتاب قيم فى العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية إلا ويسارع إلى قراءته : وكم ساءلت نفسى كيف يوفق صاحبنا بين هذا وبين أعبائه المتعددة ، فى درسه ، وفى عيادته الخاصة ، وفى سهره على مرضاه فى منازلهم أو فى المستشفيات » .

ولم تقف قراءة كامل حسين عند الحديث والمعاصر ، بل أبى إلا أن يجمع بين الماضى والحاضر : ودون أن أعرض لإلمامه الواسع بالثقافات العالمية الكبرى . أحب أن أشير إلى تمكنه من الثقافة العربية . عرف أصولها وأحاط بشتى جوانبها درسها فى عمق وسعة ، وكون فيها رأيه الخاص . ولا أظن أن من بين أقرانه من عنى بقراءة « المغنى » « والتصريح » فى النحو ، أو من فتش كثيراً فى « القاموس » « واللسان » من كتب اللغة ؟

أما الأدب فله فيه درس وبحث ، ونقد وتعليق ، وحكم ورأى ، وقد وقف طويلا عند المتنبى وأبى العلاء ، وكشف فى مجمع الخالدين عن حسه اللغوى وذوقه الأدبى .

* * *

والواقع أن كامل حسين يؤمن إيماناً جازماً بأن العربية لغة حية ، كفيلة بأن تؤدى رسالة العلم والحضارة اليوم كما أدتها بالأمس ، وحياة كل لغة بحياة أهلها ، فهم الذين يستطيعون أن يغذوها وينموها ، أن يلائموا بينها وبين حاجات العصر ومقتضياته. هى أداة أساسية من أدوات التفاهم والتبادل،

يملكها أصحابها ، ومن العبث أن تملكهم أو أن تتحكم فيهم . وهى ملكية عامة شائعة بين الجميع ولا يقبل اليوم بحال أن تقصر على الخاصة أو على طبقة بعينها . وانظروا الحارة التى استقبل بها عام ١٩٤٢ . فى « دعاء الكروان » إذ يقول : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ودون أن تفقد من رونقها شيئاً ، إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف معين » :

يلمس أديبنا الصراع بين العربية والعامية . ويراه دوراً من أدوار التطور فى حياة اللغة ، وعلينا أن نواجهه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتيسير العربية على الناس كتابة ، وقراءة وتعلماً . وبهذا تحيا وتنشر ، ويقبل عليها النشء ، وإلا عز عليه أمرها ، واستبدل بها وسائل تعبير أخرى ، ويسهم كامل حسين فى هذا التيسير إسهاماً جاداً ، فيعرض للإملاء ورسم الحروف مقترحاً طريقة لكتابة الهمزة ، وأخرى لرسم الكلمات الأجنبية ؛

ولفت نظره مافى بعض قواعد النحو من غموض أو تعقيد ، واستوقفه بوجه خاص جنس العدد ، وما يستلزمه من تذكير أو تأنيث للفظ العدد نفسه . ورأى أن ييسر ذلك بإبقاء اسم العدد على حالة دائماً ، مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة : خمسة من الرجال وخمسة من النساء . ويذهب بوجه عام إلى أن فى النحو توسعاً وفلسفة ، إن لاءمت الخاصة فإنها لاتلائم العامة ، ولا بد أن تيسر تعليمه على الناشئين :

وهذا أمر فكرت فيه وزارة المعارف قديماً ووزارة التربية والتعليم اليوم ؛ فكرت فيه على يد مصلح آخر هو المرحوم بهى الدين ركات ، واقترحت نحواً مدرسياً ميسراً ، وتركت للمتخصصين أن يدرسوا فلسفة النحو ما وسعهم . وعرض هذا الاقتراح على مجمع اللغة العربية ، وأقره فى تعديل يسير . ولم يفت أديبنا أن يدلى بدلوه فى هذا التيسير ، واقترح ماسماه « النحو المعقول » وبسط قواعده بالقدر الذى ارتضاه ؛

وكتب اللغة فى رأيه تحتاج إلى تعديل وتنقيح ، فتكتب بروح العصر وفى ضوء التقدم العلمى الحديث ، وتستبعد منها المماحكات اللفظية ، والتعليلات السطحية . ونحن باختصار فى حاجة ماسة إلى معجم حديث مصفى ، حديث فى اختيار ألفاظه ، حديث فى تحديد معانيه . لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحد ، ولا يقبل فيه إلا صيغة واحدة للكلمة . وإلا مصدر واحد للفعل ، وإلا جمع واحد للاسم وتشرح فيه الألفاظ شرحاً دقيقاً واضحاً ، يتمشى مع ما انتهى إليه العلم الحديث .

* * *

يقدر كامل حسين العربية قدرها ، ويعتز بها ، ويريد لها أن تستعيد مجدها وأن تصبح لغة العلم والفن ، وأن تؤدى رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى . ينقد بعض جوانبها ، ولكنه نقد بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد ، وليس ثمة لغة لامأخذ عليها . وحسه الأدبى لايقل عن حسه اللغوى. درس الأدب العربى درساً عميقاً ، وحاول أن يطبق عليه المنهج المقارن ، فيقارن أدباء العربية بعضهم ببعض ويقارنهم ببعض الأدباء العالميين . وفى المقارنة تشويق وفتح لأبواب مغلقة .

ولعله لايسلم بنظرية التحليل النفسى (سيكلوجيا) ، ولكنه لا يرفض أن يطبقها فى دراساته الأدبية . فهو يرى مثلا أن ما فى شعر المتنبى من غموض وتعقيد أحياناً إنما يرجع إلى ماصادفه من خيبة وفشل ، ذلك لأن هذا الشاعر الكبير الذى شغل الدنيا وملأ الاسماع لم يحقق شيئاً من أهدافه السياسية والاجتماعية ، فشاء أن يتخيل فى شعره مشاكل وصعوبات يحاول تذليلها ، فينجح هنا بعد أن فشل هناك . ونقائض الفرزدق . وقوله الفاحش ، وهجاؤه المقذع حتى لنفسه وأهله ربما كان وليد ضعف وقصور فى الشخصية .

وبعكس هذا سما فى رأيه أدب أبى العلاء بسمو شخصيته ، وهو عنده أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقه تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء . حقاً إن نثره وشعره لم يخلوا من مآخذه ، ففى نثره ضعف وتكلف أحياناً ، وفى شعره تشبيهات غامضة ، وفى معانيه تكرار ، وفى تعبيراته إسراف فى بيان ثروته اللغوية . . ومع ذلك يعد إنتاجه من الأدب الرفيع ، لصدقه وقوة تعبيره وأدبه فى الواقع هو كل حياته عاش فيه وله ، وعن طريق اللغة عرف الحياة كلها ، ولا غرابة إذن أن تطغى هذه اللغة على نثره وشعره .

* * *

وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها ، يهذبها وينسقها بحيث تبدو جليلة واضحة . وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألواناً شتى : فى الأدب والتاريخ ، فى العلم والفلسفة. وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض ؛ ففى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ، والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع والسياسة ، وكثيرا ما تقود الدراسات الطبيعية إلى ضرب من الميتافيزيقا .

ويترجم لبعض الشخصيات المعاصرة ، فيقف عند أبرز المعالم وأوضح الصفات فلطفى السيد فى رأيه أرسطى صادق فى أرسطيته ولا غرابة فوجوه الشبه بين الرجلين كثيرة : «كلاهما معلم وكلاهما شديد العناية بالكليات

عناية فائقة . وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق والبحث ، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية». والدكتور على إبراهيم بنّاء، « شيّد كثيراً ، وكأنما عاهد نفسه على ألا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيها فى مصر . وكان يرى أن ينشىء أولا، وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتمم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ وعلى الزمن أن يستكمل النقص » .

وكامل حسين ناثر، ولم أر له إلا قصيدة واحدة تحت عنوان : « لقمان والمريض » وهى من شعر الشباب ، وأرجح أنها لم ترقه وترك الشعر جانباً . ونثره نثر رقة وحضارة ، سهل واضح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا التعبير المعقد . أسلوب مطرد لا علو فيه ولا انخفاض ، حلو عذب يستمد عذوبته من رقة صاحبه ودماثة خلقه ، يقرب الأفكار البعيدة ، ويسير البرهنة الدقيقة يمقت الصناعة اللفظية والحمل الطنانة ويكره السجع والتكرار ، كان معجباً بالفكر المستقيم ، ويعده أكبر نعمة وأكبر لذة فى الحياة ، والفكر المستقيم يؤدى عادة إلى تعبير مستقيم . رحم الله كامل حسين رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء .

●● كلمة الدكتور أحمد عمار نائب رئيس المجمع :

أيها السادة :

عجباً لريب المنون من حتم مجاب .نفزع منه فى أنفسنا ونحن نعلم أن كل نفس فى وريدها رداها ، ونجزع له أن تمثلنا فيمن نعز ، وإن كنا نؤمن بأن لكل أجل كتابا . وأعجب ما فى هذا الموت أن له دهشة الفجأة مهما يتكرر ، وأن وراءه جدة اللوعة . وإن كان متوقعاً صباح مساء ، ومن غرة الحياة للأحياء أن يتعلق بها الحى كأنما هو معها غير مفارق ، وهى مهما تطل ، ظل منتقل ، باطل وقبض الريح ، دولة بين راحل ومقيم

لايلبث القرنـاء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

سبحانك اللهم واهب الحياة ، جعلت النفس فيها جدّ راغبة ، وأنهيت إلينا على لسان رسولك الكريم حديثك : « قال الله للنفس : اخرجى . قالت : لا . قال ؛ اخرجى وأنت كارهة » . كذلك مضت سنة الكون ، للموت نحيا ، وللحياة نموت . وقديماً تضمنت حكمة الشعر وصف الدنيا فى قول أبى الطيب :

تملكها الآتى تملك سالب
وفارقها الماضى فراق سليب

بالأمس القريب فقدنا أخاً ما كان أحبه إلينا ، وأعزه علينا الصديق الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، فانقطع عنا بفقده ما ألفناه من صحبة كرمت وصفت ، وكنا نزداد على امتدادها أنساً بها ، وحرصاً عليها ، فوجدنا لفقده من الفجيعة أحرّ ماتكون ، وشعرنا بأن مكانه بيننا قدخلا ، لتغمره الوحشة القاسية ، ولتمتلئ نفوسنا عليه حسرات . فيا أيها الصديق :

إنا إلى الله راجعون لقد
أصبح حزنى عليك ألواناً

حزن اشتياق وحزن مرزئة
إذا انقضى عاد كالذى كانا

أيها السادة :

ماتهيبت موقفاً فى جمع ، ولا مقاماً من مقامات القول ، كما تهيبت هذا الموقف الذى ندبت إليه ، وذلك المقام الذى حملت عايه . وكان مرد هذا التهيب عندى إلى أمور :

أولها : قرب العهد بفقد الراحل العزيز والنفس ملأى حزناً عليه ، وشغلا بالأسى لفقده ، ولا يجزى فى موقف التأبين تفجع وحنين ، ولا تعبير عما يكمن فى الجوانح من شجو والتياع .

وثانيها : أن الراحل العزيز شخصية تتعدد جوانبها . فهو من العلم بالمكان الملحوظ ، ومنزلته من الأدب فى الصميم ، ومكانه من الفكر فى الصف الأول من قادة الرأى ، ثم هو فى مجال الإصلاح القومى بين أقطاب الدعاة إلى التطور والتجديد . وأنه مع ذلك كله بين الأطباء يتسنم الذروة التى تتقاصر دونها العزائم والهمم .

وثالثها : أن الإلمام بهذه الشخصية المتعددة الجوانب لايكفى فيه مجرد التعريف العابر ، والسرد الموجز . فلابد أن ينبسط البيان فيه حتى تتبين وجوه التحليل والتفصيل وهيهات لذلك أن يتسنى فى خطاب ساعة أو بعض ساعة .

ولكنى فى طاعة الواجب الملقى على أمتثل : ولعل فى هذا الامتثال ما يقيم عذرى من قصور أو تقصير .

أيها السادة :

العصر الذى عاش فيه الدكتور محمد كامل حسين يمثل مرحلة دقيقة من مراحل النهضة الحديثة فى مصر ؛ إذ حفل هذا العصر بجملة من الدعوات إلى الانبعاث العلمى والتقدم الحضارى ، لملاحقة الركب الماضى إلى أمام . ولكأنما الأقدار قد هيأت للدكتور محمد كامل حسين أن تتمثل فيه عصارة تلك الحقبة بأفضل ما فيها من قيم ومثل وأهداف . وماكان له أن يبلغ هذا الشأو منها لولا ما أتيح له من المواهب العقلية . تلك المواهب التى جعلت منه فريدا فى البحث العلمى : والتوجيد الاجتماعى .

ولد الدكتور محمد كامل حسين فى مستهل القرن العشرين . ولما أتم دراسته الطبية فى نبعة الصبا أوفد إلى إنجلترا ، فلبث خمس سنين . وظفر بزمالة كلية الجراحين الملكية ، واختص بجراحة العظام ، وعاد إلى كلية الطب ، حتى صار أستاذا بها . ثم كان أول مدير لجامعة إبراهيم التى سميت فيما بعد عين شمس ؛ وظل مستشارا لمستشفى الهلال الأحمر نحو أربعين سنة . كما كان رئيسا للجمعية المصرية لجراحة العظام ، وعضوا مراسلا لأكاديمية الجراحة فى باريس ، وعضواً فى الجمعية الدولية لجراحة العظام . ورئيسا للمجمع العلمى المصرى ، وعضواً فى مجمع اللغة العربية ، وفى مجلس الجامعات الأعلى ، وفى مجلس البحوث العلمية ، وفى المجلس الأعلى للفنون و الآداب ، وفى أكاديمية البحث العلمى . وكان منشىء أول قسم لجراحة العظام فى الجامعات ، وفى هذا القسم تخرجت أفواج المتخصصين .

وإلى جانب هذه المهام الجسام كان للدكتور محمد كامل حسين نشاط دائب موصول فى البحث والدرس يزاحم فيه ليله بنهاره ، فقد أخرج من الكتب والرسائل عدداً غير قليل . له المتنوعات فى جزأين ، وله طب الرازى ، وله التحليل البيولوجى للتاريخ ، ووحدة المعرفة ، والوادى المقدس ، والذكر الحكيم ، والشعر العربى ، واللغة العربية المعاصرة ، وله قرية ظالمة ؛ تلك الطرفة القصصية التى استطاعت أن تتخطى الحواجز اللغوية والقومية فتكون من الأدب العالمى ، إذ ترجمت إلى الانجليزية والفرنسية وإلى الأسبانية والهولندية ، وإلى التركية . فلا غرو أن تهدى إليه الدولة جائزتها التقديرية فى الأدب ، ثم تهدى إليه جائزتها التقديرية فى العلم أيضاً .

أيها السادة :

لكل شخصية سرها الكامن فيها ، ولكل نفسية مفتاحها المؤدى إليها . وقد حاولت أن أستكنه سر الشخصية الكاملة ومفتاح نفسيتها ، فلم أجد أصدق فى تقديمها للتاريخ من تقديمها هى نفسها لنفسها يوم الاحتفال باستقبال كامل عضواً فى المجمع ، فقد قال فى كلمته : « التشريف فى غير ميدان الفكر قد يرفع قدر المرء عند الناس ، ولكنه فى مجال الفكر تعريف حق ، يعظم به قدر المرء عند نفسه . والتسامى عقلا أو خلقاً أمر نادر فى الحياة الحديثة ؛ فهى عنيفة ملحة . والنفس البشرية فى حاجة إلى الهدوء والاطمئنان والاستقرار . أمور نلتمسها فلا نجدها إلا فى الحياة الفكرية حين تخلص من شوائب الشهوات الجامحة ، والرغبات العاجلة ، والتهالك على المنفعة القريبة » .

فالدكتور محمد كامل حسين ، كما جرى على لسانه يؤمن بأن شرف الحياة هو فى الإخلاد إلى صومعة الفكر ، وأكاد أقول فى محرابه ، والتصوف فى خلواته . لقد كان يدعو دائما إلى العقل ويهتف به ، ويعنى بالعقل ذلك الوعى الرياضى التجريبى الذى يقدر ويدبر ويحلل ويعلل ، ذلك العصام الذى يحمى صاحبه من الانقياد والتسليم ويحول بينه وبين التأثير الاعتباطى بالمقول والمنقول ولقد بلغ من ترويضه للعقل والفكر أن كتب بحثاً فى النحو سماه « النحو المعقول » ، وحين قدم صورة لتصريف الكلم أسماها « جدول الصرف » كما للحساب « جدول الضرب » .

وكان لايقنع أن يكون المرء مفكراً حتى ينتهج له نهجاً فى حياته العقلية ، يخلص له ، ويمضى عليه ، وعنده أن ذلك لايكفى فيه دراسة وفهم ، أو دعابة وترويح ، بل لابد من تمثل واقتداء . إنه يقول : « إن الدعوة تعد ناجحة حين يكون القائم بها أقرب مايكون طبيعة وتفكيراً إلى مايدعو إليه » . وهو يقرر هذا فى مقام الإشادة بأن لطفى السيد كان فى حياته وجهاده نموذجاً لتطبيق فلسفة أرسطو ومذهبه الفكرى .

والحق أن « كاملا » كان نموذجاً لذلك الرجل الذى تمنى أن يكون ، آمن بالعلم فى أرحب نطاق ، وبالتفكير العلمى فى أكثر صوره نقاء ونزاهة ، وبحرية البحث من غير شطط ، وبالتجربة المفضية إلى نتائج لا تحتمل المراء .

أيها السادة :

كان « كامل » عالماً عالمى النزعة ، وهو إلى ذلك مصرى صميم ، وعربى عريق : وإن اعتزازه بمصريته وعروبته ليدعوه دعاء ظاهراً أو خفياً إلى التغنى بأمجاد مصر والعرب فى ميدان العلم . ولكنه لا يتغنى بها تشدقاً ، ولا يرسل قوله دعاية وشعاراً بل يقدم إلى العلم دراسة أصيلة . لها عند العلميين أجمعين مقام كريم .

يعمد إلى الطب الفرعونى فيقدم إلى المعاصرين أقدم رسالة علمية فى التاريخ ، هى ورقة من البردى ترجع إلى عصر بناة الأهرام ، متناولا إياها بالشرح والتفصيل فيكشف لنا أن صاحبها المصرى قد وصف حوادث السقوط وجراحاته وصفاً يساير المنطق العلمى والبحث الطبى ، ويعمد إلى الطب العربى ، فيدرس الرازى فى رسالة مستقلة ، ثم طب ابن سينا فى كتاب « القانون » فيزن ما فيه من ظواهر وحقائق ويوزان بينها وبين ما أسفر عنه الطب العصرى . ثم يقول :

« إن للأطباء معايير يقيسون بها أقدار العلماء الأقدمين غير ما يكون فى كتبهم من فائدة علمية ؛ فهم يعترفون بالفضل

للطبيب الذى يبدأ طريقة جديدة، حتى بعد أن يبطل العمل بها » ؟

أيها السادة :

كان « كامل » ذا عقل حصيف ، و علم غزير ، وكان أيضا ذا وجدان مرهف ، وضمير حى ، وقلب كبير ؛ وكان عامر القلب بالإيمان وبالحب وبالخير : وله فى هذا الباب انتفاضات تلمح فيها عاطفة نابضة ، وصوفية مستنيرة . قال منذ خمسة وعشرين عاماً فى كلمته المجمعية .

« من الخطأ أن نظن العلم يقوم على العقل وحده ، وأنه بمعزل عن الإيمان ؛ هذا يصدق على العلم الميت، علم الوقائع ، ولايقال عما يحتاج إليه البحث فى الضمير وما وراء الطبيعة » .

وهو فى « قرية ظالمة » يشيد بالضمير عاملا أساسياً فى حياة الإنسان وسعادته فيقول : إن الناس حين يفقدون الضمير لا يغنيهم عنه شئ ، فالضمير الإنسانى قبس من نور الله ، لا يكون للناس هدى بغيره . وكل فضيلة تنقلب نقصاً : وكل خير يصبح شراً ، وكل عقل يصبح خيالا ، ما لم يكن للناس من ضميرهم هاد .

وعلى لسان الحواريين فى ضراعتهم إلى الله يقول : « اللهم إنك أنعمت على الناس فوهبت لهم الضمير وهو روح منك ، وجعلت أمره أمرك، ونهيه نهيك ، فمن أطاعه فقد أطاعك ، ومن عصاه فقد عصاك »

« وهو يقول فى تفسير الحب الكامل فى واديه المقدس: « أكمل الحب حبك الله ، إذا كان من أثره فيك أن تحب من يحبهم الله ، وهم الناس جميعاً . وليس لك أن تختار من الناس من هم جديرون بحبك ، وليس لك أن أن تختص بهذا الحب من تعتقد أن الله يحبهم فأمر ذلك إلى الله وحده . وعليك إذا أحببت الله حقاً أن يقع حبك على الناس أجمعين» :

وهو إذ يصف الحياة الطيبة القائمة على السلم يقول : « إذا أردت أن تكون حياتك طيبة صادقة — ولا أحسبك عن ذلك راغباً — فاعلم أن الحياة الصادقة تقوم على السلم . والسلم يكون بينك وبين نفسك ، ويحققه الإيمان. ويكون بينك وبين الأقربين ، ويحققه الحب . ويكون بينك وبين العالمين ، ويحققه الخير... ».

وهو يرى أن التطهر النفس إنما يكون بالإيمان والحب والمعرفة ، فيقول : « خير ما فى الإيمان الإيمان نفسه ، مهما يكن ما تحب أو من تحب . وخير ما فى المعرفة المعرفة نفسها ، مهما يكن موضوع ما تعرف » .

وهكذا يتجلى لنا « كامل » العالم إنساناً وثيق الإيمان ، مرهف الوجدان

ينشد الحب والخير والمعرفة الإنسان ، حيثما كان :

أيها السادة :

كانت اللغة العربية وتطورها شغل كامل الشاغل . وقف يوم استقبله بالمجمع يقول : « أول مايجب أن نعنى به هو العلم بالعربية فإن أحدا لا يستطيع أن يأتى بعمل ذى خطر إلا أن يكون ذلك بلغته . والذين لا يملكون ناصيتها يظلون حيارى لا يقدمون على شئ من الأدب الرفيع ، فالأدباء يريدون اللغة طيعة . والعلماء يريدونها دقيقة ، وأهل اللغة يريدونها نقية : وعندى أن نقاوة اللغة إنما هى كصفاء الماء فى الغدير ، والماء الهادى اذا اضطرب صفاؤه ، واللغة إذا اضطربت ذهب رواؤها » .

لم يقف « كامل » عند الإفصاح عن رأيه فى تطوير اللغة ، لكنه تجرد بعد ذلك للعمل ، وهو رجل جد ، فمضى باحثاً دارساً ، يعالج أن يعطى صورة لما يجب أن تكون عليه متنا ونحوا وصرفاً وإملاء . وآنس بالمجمع منبراً حراً يصدع منه بدعوته . وهو يلخص فلسفته اللغوية فى قوله :

« لانزاع فى أن اللغة أدق من قواعدها . وأن الذوق أصدق من أجرومينها ، وأن اللغة أوسع من معاجمها ، وأن التقيد بما ورد منها فى المعاجم القديمة ينقص من قدرتها على التطور والنمو » . ويوضح هدفه بقوله :

« إنى لا أدعو إلى تغيير فى مقاييس الصحة فى العربية الفصحى ، ولكنى أقول إننا نستطيع وضع قواعد بسيطة جداً يمكن أن يلم بها المتعلمون فى وقت قصير ، فيتجنبوا اللحن فى أكثر كلامهم » .

وماقدمه فى هذا الجانب إنما أراد به كما يقول : تعقيل النحو وترويض الصرف مع تنظيم من اللغة وتيسير الأحكام الإملائية . ومنهما يكن الرأى فى هذه المقترحات والتصورات فستكون على أية حال مثار تفكير لتبسيط قواعد العربية وتطويعها لمقتضيات الحياة المعاصرة .

أيها السادة :

قضيت ساعات قبل أن أكتب هذه الكلمات مع الدكتور محمد كامل حسين فيما ترك من آثاره الحسان ، عشت معه وأنا أقرأ فى كتبه ، كأنى أستمع إليه ، أو كأنى أساير وهو يعبر بى معابر من العلم والمعرفة دقيقة فيها تتوارد أفكار وآراء ، ومنها تتبين أحكام ونتائج :

واسترعى انتباهى — وأنا أقرأ وأستمتع — أنى إنما أقرأ لرجل استقلال وانفراد ، يؤيدها عقل يتوقد وقريحة تستجيب ، وقلم لا يعيا بالإبانة والإفصاح . وكأنى حين انتهت قراءتى قد رجعت من رحله طويلة ساقنى صاحبها إليها ، وأرانى فيها من المشاهدات والحقائق مايحرك الذهن ، ويوقظ الفكر ، ويثير النفس ، ويلهب الشوق إلى المزيد :

وأشهد أن كاملا يجمع فيما يكتب بين الثقه بما يقول ، والاستبصار فيما يقرر ، وأن له مقدرة بيانية تسموبه إلى ذروة الإجادة والإيداع . وأن أسلوب كامل الجزل المشرق ليقدم لنا نموذجا لبلاغة الكتابة العصرية فى مستوى رفيع ، يجمع إلى خصائص الفصاحة والأناقة مزايا الدقة والإحكام .

أيها السادة :

لعل منكم من لاحظ أنى حرصت على على أن أتمثل بما كتب الدكتور كامل أكثر مما حرصت على أن أعلق عليه . وإنى لأذكر فى هذا المقام أن المرحوم الأستاذ أنطون الجميل كان قد ألف رسالة فى الكلام عن شعر أمير الشعراء شوقى ، فجاء ماتمثل به من ذلك الشعر أضعاف ماجرى به قلمه من تعقيب ويبدو أن أنطون الجميل توقع أن يلاحظ ذلك عليه، فصدر رسالته بجملة لأحد أقطاب المفكرين يقول فيها: كفاكم كلاما فى شأنى فأمسكوا أصواتكم عنى ،وأسمعونى صوتى .

ولست فى ريب من أن صوت الدكتور محمد كامل حسين فيما كتب ، فيما أبقى من بيانه ، هو خير مايقال فى تأبينه، وهو أجل مايحفظ ذكراه ، عليه رحمة الله :

كلمة الشعر للدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش

عضو المجمع :

خلت المحافل من أديب مصقع
ونعى النعاة حكيمنا فى المجمع

وغدوت أبحث فى الوجوه عن الذى
قد كان ملء عيوننا والمسمع

فهو الخبير بدائنا وشفائنا
أبصر به فى الحادثات وأسمع

سوّى البنان بقدرة من ربه
وشفى المريض بأرجل أو أضلع

سرّ له فى خلقه أفضى بـــه
لمـــن اصطفى من عالم متضلع

وإذا قرأت له سباك يراعه
وإذا شفاك عرفت سر المبضع

وتقول إن جاءتك منه رسالة
عبد الحميد ترى أم ابن مقفع ؟

هو كابن سينا فى الشفاء وكابن رشد
والغزالى فى الخطاب المشبع ؟

أفكاره أزواجه وبناتـــــه
وبنوه مرضاه وثبت الإصبع

بوركت ياكف الأديب الألمعى
وسلمت ياكف الطبيب اللوذعى

لهفى على رجل يبيت على الثرى
بلغ الثريا فى سمو الموضع

لكنها سنن الحياة تواترت
نغدو وليس لغابر من مرجع

فالناس بين مشيِّع ومشيَّع
يمضى فيتبعه الردى بمشيَّع
تلقاه قبل عشية بمـــودِّع
فإذا بـــه عند الضحى بمودَّع
لا تحسبن من الردى بمفازة
أحدا فما أحد نجا من مصرع
واعلم بأنك بعد حين هالك
ولسوف تفترش التراب كمخدع
كنه الحياة وسرّها خفيا على
مستأنس بحياتـــه متمتـــع
حتى إذا ضاقت عليه رحابها
وأتاه مكروه بغير توقـــع
تلقاه يرجـــع تائباً مستغفـــرا
يبغى النجاة من القضاء المفزع
فلـــرُب تنفـــع ضارة تهـــدى إلى
سبلى الرشاد فيالها من مقنع
أن السبيل إلى الهداية واضح
تقوى وإيمان بدون تزعزع
لا ملجأ غير الإله لطالب
حسن الختام بقلبه المتضرع
جفّ المداد وأجدبت أقلامه
إلا من اللحن الحزين المفجع
هل ضاق صدرك بالزمان الخادع ؟
أم هل نسيت الطب بعد توجع؟
فعدلت عن وصف الدواء الناجع
وتركت دنيانا بخطو مسرع
وسعيت للأخرى بقلب خاشع
تبغى الوسيلة والرضى بتضرع

قل للملائكة الذين تهبطهم
آمنت بالذكر الحكيم الأروع
أحببت "أحمد" فى الحياة وإننى
أبغى الشفاعة منه يوم المفزع
خذا ما كتبت ومن شفيت شهادة
وبراءة عند البديع المبدع
فالفضل فى الدنيا لعلم نافع
والفضل فى الأخرى لعبد أطوع
لك فى العلوم مكانة مرموقة
وملكت بالفصحى فؤاد المُسمع
زفت إليك قلادة عن "قرية
ظلمت" نبى محبة وتواضع
وتلاه "واديك المقدس" شاهداً
للعبقرية بالدليل المقنع
وختامه مسك عن "الذكر الحكيم" (م)
وتابعيه الساجدين الركع
وقلادة أخرى عن العمر الذى
أفنيت فى طب الضلوع وأذرع
بوركت فى الأخرى كما بوركت فى
دنياك بالحسنى وأشرف موضع
« فمحمد » سميت أنت « وكامل »
و« حسين » للتمليح منذ المطلع
وحباك ربك بالمكارم والتقـــى
والعلم والأدب الرفيع الممتـــع
واليوم تبكيك المعارف كلها
والمسلمون بمغرب أو مطلع
والعرب بين خليجهم ومحيطهم
والنيل بين مصبه والمنبع
من كان فى الدنيا تقيا عالما
أبصر به فى الآخرين وأسمع

ـــعة الحادية عشرة من مساء الاربعاء ٢١ من ذى القعدة ١٣٩١ هـ الموافق
١٩٠ أقام المجمع المجمع حفل تأبين المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس عضو المجمع

ـــ يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمـــة الافتتـــاح

للدكتور ابراهيم مدكـور
رئيس المجمع
فى تأبين المرحوم :

الدكتور
ابراهيم أنيس

ـــيـــاتى ساداتى :

ـــتقى اليوم لنقضى لحظات مع ذكرى
ـــيـــة حالينا جميعا ، ولقد كان أنيس رحمه
ـــ أنيسا فى لقائه ، أنيسا فى مجلسه ، أنيسا
ـــ ـــشه ، يلقانا ببسمته الخفيفة المعبرة ، ثم
ـــ ـــينصت ويسمع أولا ، ولا يتحدث
ـــ ـــ دعاه داعى الحديث ، ودواعيه
ـــ ـــ دائما ذات مغزى ودلالة ، لم يبتل قط
ـــ ـــة الكلام ، وإذا ماتكلم فإنما يتحدث
ـــ ـــ يحرص على الأصالة ماوسعه ، ويمقت
ـــ ـــ والإعادة ، ويصدر عن ذوق
ـــ ـــ حس صادق .

ـــنا معه فى هذه الدارست عشرة سنة
ـــ ـــ ، وصلته بها أقدم من ذلك بكثير ،
ـــ ـــ تختبر خبيرا باللهجات والأصول
ـــ ٤٨ : وغذى المجمع ببحوث لغوية خصبة
ـــ أن يصبح عضوا فيه ، ثم استمر يغذيه
بغذاء ممتع إلى آخر لحظة من حياته . وأشهد أنه كان مؤمنا الإيمان كله برسالة المجمع ، وحريصا الحرص كله على أدائها كان يؤمن بالتطور فى غير ماطفرة ، بالتجديد والإصلاح وفى غير ماغموض ولاتعقيد ، وقد أعطى المجمع ماوسعه ، بحث فيه ودرس ما أمكنه ، أعطى فى لجاننا المختلفة من لهجات وأصول ولحان علمية وألفاظ وأساليب ، فى لحان المعجمات اللغوية المتعددة ، من الكبير إلى الوسيط ، ثم إلى الوجيز ، وأعطى بسخاء فى مجلة المجمع التى اضطلع بالإشراف عليها منذ عام ٦٧ ، واستطاع أن يخرج منها فى حياته خمسة عشر جزءا ، وتحت الطبع جزآن آخران يحملان اسمه ، فكساها بكساء جديد ، وأمدها دون انقطاع بأفكار راشدة وتوجيهات سديدة ، وقد التقيت معه أخيرا على مائدة المعجم الوجيز ، وماكان أعزها

١٩٠٠

عليه وأحبها إلى نفسه، وإنالنه جو أن يخرج هذا المعجم قريبا إلى النور وفاء للذكراه وتخليدا لجهوده وجهوده من أسهموا معه .

أما عطاؤه فى مجلس المجمع ومؤتمره فمجال القول فيه ذو سعة ، ولايقل عن ذلك عطاؤه الجم الفسيح فى عالم التأليف والبحث، فى عالم الأدب واللغة، إن فى مصر أوخارجها .

وسيقول زميله الوفى الأستاذ على النجدى كلمة المجمع فى ذلك كله ؛ ويليه الدكتور عبد الله درويش ليقول كلمة دار العلوم ثم تقول الأسرة كلمتها على لسان الدكتور عبد العظيم أنيس شقيق الفقيد.

رحم الله فقيدتنا رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وأمته :

●● كلمة الأستاذ على النجدى ناصف عضو المجمع :

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ، أيها السادة والسيدات :

هل رأيتم النجم الثاقب كيف يهوى من عليائه ، فيخلو مكانه ، وينطفئ ضياؤه ، وتخمد جذوته ، ويصبح أثرا بعد عين ؟

أم هل رأيتم العذب الفرات كيف ينقطع سيبه ويغيض فيضه ، ويسكن سلساله فإذا الرىّ ظمأ ، والخصب جدب ، والحال غير الحال ؟

هذا ماحاك فى صدرى حديثا ، وتمثل فى ذهنى خيالا ، حين نعى إلى الصديق، العزيز والزميل الكريم : الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، وهكذا إذا فدح الخطب ، وجل المصاب يذهل المرء عما حوله ، ويخلو إلى نفسه ، فتجيش بالخواطر والذكريات ، وتتوافى إليها الصور والأطياف .

لم أكن فى هذا الرزء وحيداً ولا خُصَّ به المجمع وحده ، ولكنه الرزء الجامع يتشارك فيه ويستهول وقعه كل، من عرف الفقيد. ووصلته به صلة، وقدره حق قدره، من الذين أخذوا عنه ، والذين قرؤاله، وماأكثرهم هنا وهناك فى أرجاء الوطن العربى الكبير !

ولم يكن الحزن عليه — مع قسوته وشدة حرقته من سخط على القدر أن يمضى إرادته وينفذ حكمه ، ولاكان من جحود بحق الموت أن يلم بمن حان حينه ، فيطوى صحيفته عيانا ، وأهله وعشرته من حوله ينظرون، لايمنعه منهم مانع ، ولاتنفعه منهم شفاعة شافع ؛ ثم يعقبهم من بعده الحسرة واللوعة والأسى :

كلا ، لم يكن الحزن عليه من هذا أومن ذاك ، فالقدر فيما يعلم الناس حتم مقضى لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، والموت لابدوافع ، ماله من دافع ، وهو بعد لايأخذ ويدع ، أو يجابى ويصانع ، ولكنه السهم النافذ المصيب ، ينطلق لموعده ، فيُصمى رميّته ، فإذا الحياة همود والحركة سكون. وصدق الله العظيم إذ يقول : (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرجعون) ، وإذا يقول : (فإذا جاء أجلُهم لايستأخرون ساعةً ولايستقدمون) ، ويرحم الله شوقى إذ يقول :

كل حى على المنية غادى
تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الأولون قرناً فقرنا
لم يدم حاضر ولم يبق بادى

وإنما هى المفاجأة المروعة أخذنا بها على عهدٍ منا بالفقيد جد قريب ، إذ كان معنافى جلسة المعجم الكبير ، وكان على خير مانحب له ، متهللا مستبشراً ، بارئاً معافى ، لا تبدو عليه أثارة من ضعف أو معاناة من علة ، فنكون منه إن طالت عنا غيبته بين قلق واطمئنان ، ويأس ورجاء ، حتى إذا قضى الأمر ووقعت الواقعة لم تكن سوط عذاب ولا صاعقة عاد .

لكن الله تعالت حكمته — أبى إلا أن تكون المفاجأة بما لم يكن يدور فى خلد ، أويقع فى حسبان ، فكان ماقضى الله ، وماهى إلاطرفة عين ، أو خفقة برق ، حتى انهار للصرح ، وانطفأ السراج ، فإذا الضياع والفراغ ، وإذا الفراق لغير موقف وداع ، ولا عِدَة بلقاء .

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ،
أيها السادة والسيدات :

لقد حزنا ماشاء الله ، وشاء الوفاء للفقيد أن نحزن ، ولايزال منه فى قلوبنا هم دفين ، تثيره ذكراه المتجددة وآثاره الباقية . لكن هل نستسلم للحزن ماشاء ، ونمضى معه غافلين لاننازعه قيادنا ، ولا نجاهد للإفاقة من غمرتنا؟ تلك لعمر الله الخطة لا أبعد منها عن الحكمة والرشاد ، وليس من ورائها خير يرجى ، أو عائدة تطلب ، إلا البوار وسوء العاقبة .

صحيح أن فراق الأعزة أليم شديد ، وسلطانه على الوجدان قاهر عنيف ، لأنه حرمان وفوت وخسران . ولكن صحيح آن المحزون إذ يلجأ إلى ربه ، ويعتصم بإيمانه ، وإذ يوحى إلى نفسه بالرضا بالقدر ، ويروضها على الاحتمال والصبر ، ويبصرها عاقبة التمادى فى الحزن فهو حقيق — بعرن من الله — أن يسكن إلى الواقع ، ويستسلم للمقدور ، عن إرادة وعزم لاعن سلو ونسيان. وفى ذلك مرضاة

لربنا ، وإيقاء على سلامتنا . وقديماً حكى أبو تمام قولة قالها الإمام على — رضى الله عنه — يعزى الأشعث بن قيس ، قال :

وقال على فى التعازي لأشعث

وخاف عليه بعض تلك المآثم :

أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أم تسلوم سلوّ البهائم ؟

ومن أبى إلا التمادى فى الحزن رقة وحناناً — فهو وما اختار . وليصنع بنفسه ما يشاء ، غير راحم لها ولا مبق عليها . ليحزن مصبحاً وممسياً ، وليحزن لجنبه ، وقاعداً وقائماً ، حتى إذا أبلى بلاءه فيه ، وبلغ غايته منه — فلينظر إذا كتبت له السلامة من التلف : هل منع الفلك بحزنه أن يدور ، أو أمسك الحياة أن تسير ؟ أم هل جاءه نبأ من دهرنا الأطوال عن محزون رد بحزنه فائتا أو أحيا ميتا ؟ فلنتواص إذا بالحق ، ولنتواص بالصبر ، طاعة لأمر ربنا فى كتابه الكريم .

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ، أيها السادة والسيدات : لقد عرفتم الفقيد عالماً متمكناً ، وحجة ثبتاً ، ولم يكن ذلك عنده عن عفو من مصادفة ، أو شذوذ من مفارقة ، بل عن أصالة مذخورة ، ووراثة مأثورة . فقد كان — رضوان الله عليه — فرعاً من شجرة مباركة طيبة ، تضرب فى النجابة بعرق مكين ، إذ كان رابع أربعة من إخوة كرام ، ما منهم إلا صاحب تخصص فاضل فى لون من الدراسة العالية ، يعرف به وينسب إليه . وخاله هو المغفور له : أستاذنا الجليل زكى المهندس : طيب الله ثراه .

ولا أصفه بأكثر مما تعرفونه عنه ، من علم ناضج وعطاء وافر ، إلى سراوة فى الطبع وتألق فى القريحة .

وقد ولد الفقيد فى القاهرة عام ١٩٠٦ ، فأتيح له أن يرى من معالمها ويمارس من أساليب الحياة فيها مالا يتاح مثله لغير ساكنى الأمصار . ولما أن اشتد عوده ، ولاحت بواكير وعيه — بدأ رحلته للتلقى والدرس . فلما بلغ المدرسة التجهيزية التى كانت ملحقة بدار العلوم — دخلها ، وأتم الدراسة فيها . ثم دخل دار العلوم ، وتخرج بها عام ١٩٣٠ وتولى التدريس فى بعض المدارس الثانوية ، ثم كانت مسابقة دعت إليها وزارة المعارف للاختيار بعثة دراسية إلى أوربا ، فاستبق فيها الفقيد مع المستبقين ، وفاز بالبعثة إلى إنجلترا .

وفيما بين عامى ١٩٣٣ ، و ١٩٤١ حصل من جامعة لندن على درجتى بكالوريوس الشرف فى الآداب ، ثم دكتوراه الفلسفة فى الدراسات اللغوية السامية . وفى لندن أكبر أعضاء النادى المصرى شخصه ، وقدروا مواهبه ، فانتخبوه رئيساً لناديهم ، يدير أعماله ، ويدبر شئونه .

وعاد إلى مصر فحاضر فى دار العلوم ، ثم فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، ثم عاد بعد سنتين إلى دار العلوم ، واستقر بها

حتى صار أستاذاً فيها ثم عميداً لها عام ١٩٥٥ ثم عاد عميداً لها عام ١٩٥٨ . وفى هذا العام اختير خبيراً فى المجمع ، ثم عضوا من أعضائه عام ١٩٦١ ، إلى أن اختاره الله لجواره مع البررة الصالحين من أوليائه .

وأذكر له حين ولى عمادة دار العلوم أنه أحسن الولاية عليها ، وأدار أمورها بالحكمة والحزم ، ووهب لها وقته كله ، فكان يغدو إلى مكتبه مستهل ساعات الدراسة ، ولا يزال فيه إلى منتهاها ، لا يغادره — إلا لمحاضرة أو لإجابة دعوة إلى الجامعة .

وكانت تقام فى الكلية دورات دراسة تدريبية لطائفة من مدرسى اللغة العربية ، يحضرونها مساء لأسابيع من الصيف . وكان للفقيد الإشراف عليها ، وأشهد أنى ما افتقدته يوماً من أيام هذه الدورات إلا وجدته حاضراً وكانت ثمة رخص تيسر له — لو أراد — أن يخفف عن نفسه بعض هذا العناء المتوالى . لكنه — أحسن الله إليه — لم يكن يأخذ فى أداء واجبه بالرخص بل بالعزائم ، يحمل نفسه عليها ، ويلتزم الأخذ بها قبل أن يفكر فى الدعوة إليها .

ولست أنسى له — وهو عميد — موقفاً كريماً من مواقف الإباء وعزة النفس والحفاظ على الكرامة ، والزهد فى مقام الرياسة وأبهة المنصب إذا لم تتهيأ له الأسباب التى تمكن له من الاضطلاع بتبعته على ماتقتضيه المصلحة ويوحى به الضمير .

فقد كان من كبار العاملين فى إدارة الجامعة إذ ذاك سيد كبير من غير الجامعيين ، كلمته مسموعة وإرادته ماضية ، واعتاد السادة عمداء الكليات أن يختلفوا إلى مكتبه فى المناسبات الجامعية ، مطاوعة للدواعى المجاملة ، إلا عميد دار العلوم . ولم يكن رحمه الله — يفعل ذلك عن تعال فيه أو استكبار ، فما عهدناه متعالياً ولا متكبراً ولا مكان للتعالى والاستكبار فى هذا المقام ، لكنه — فيما أقدر — كان يرى أن مقطع الرأى فى مثل هذا الأمر إلى شعور المرء به ، انبساطاً له ، أو انقباضاً دونه . ولم يخطر بباله ولا وقع فى وهمه أن مثل هذه الهنة فى هوان الشأن وقلة الغناء يمكن أن تشغل بالا أو تثير تفكيراً .

لكن الواقع جرى على خلاف ذلك ، فقد لحظ السيد الكبير إعراض الفقيد عما يتعاطاه الاخرون معه ، وعجب له ، وتساءل عنه وربما عده تعاليا عليه وتهاونا به .

وعلم الفقيد بالأمر ، فلم يعدل عن خطته : لكنه لم يلبث أن لحظ أن العراقيل والعقبات جعلت تأخذ الطريق على أعماله ، أو تعوق سيرها إلى الإنجاز قدماً . فظن بادى الرأى أنه الطارىء الموقوت يعرض بعض الوقت ، ثم يزول عفواً أو بالمحاولة اليسيرة . ثم استبان أنه أمر يراد ، بل كيد يكاد .

فحاول رحمه الله أن يعالج الأمر من بابه المطروق ، لكنه لم يوفق ، لأن السيد الكبير لا قبل لأحد به ، فلم يبق إلا التى لابد منها

للرجل الحازم الكريم : أن يستقبل وكذلك فعل الفقيد ، وأقبل على دراسته وبحوثه راضياً مطمئن البال ، مذكوراً بالخير وطيب المقال .

تلك كانت حياة الفقيد العملية فى مراحلها المتتابعة . أما حياته العلمية فقد توافت إليها الأسباب المواتية والملابسات الصالحة ، لتجعل منها حياة خصيبة ، وافرة العطاء ، يانعة الثمار ، لها من استقامة المذهب نصيب موفور . بفضل ما آتاه الله من شرف المزية وفضل الموهبة فى ذهنه ، ومناهج تفكيره ، واستقامة منطقه ، وصفاء طبعه .

ثم هو قد أخذ علوم العربية فى أصالتها ونقاء معدنها واتساع آفاقها على جمع من شيوخ ادار العلوم وأعلامها المذكورين ، وتمرس بها على أعينهم تحصيلا وتطبيقاً .

ثم سافر إلى لندن فلقى بعض المستعربين ، وسمع منهم ، وقرأ لهم بحوثاً فى اللغات السامية ، وقرأ لآخرين من علماء الغرب بحوثاً فى لغاتهم القديمة والحديثة ، واطلع على محاولاتهم تفسير الظواهر اللغوية عندهم على نور من نظائرها فى اللغات الأخرى ، فأضاف من ذلك علماً إلى علمه ، وآراء إلى آرائه ، واطلع على ضروب من مناهج التفهم والتفكير وطرائق العرض ، توافق أو تخالف ما عنده من ذلك قليلا أو كثيراً .

فكان لذلك كله عمل غير مردود فى إنضاج شخصيته الفكرية وإثراء مادته العلمية لكن شيئاً من ذلك لم يفتنه ، ولا طغى عليه ، بل ظل متماسكاً حر الرأى ، يأخذ ويدع ، ويوافق ويخالف . ولم يكن فيما يأخذ أو يوافق حاكياً مردداً ، ولا مسرفاً غالياً . ولم يكن فيما يدع أو يخالف جامداً متعصباً ، ولا حرجاً متزمتاً ولكنه كان يصنع به كما يصنع بما يدرس من تراثنا اللغوى ، يخير ويفاضل ، ثم يرجح ويختار عن بينة واقتناع . وإذا كان بالحديث آخذ ، وحظه منه أوفر . فلأن نظراته فى القديم لم تكن محاولة لنقض أصل . أو تغيير حقيقة ، وإنما كانت محاولة لتغيير غير التغيير وتأويل يخالف التأويل ، أخذاً على سنن الدراسات اللغوية المتطورة ، والنظريات المستحدثة .

وأكثر ما دارت بحوثه عليه هو العربية فى أصواتها ، والعربية فى مفرداتها وما يطرأ على بنيتها من قلب وإبدال ، وما يكون بين معانيها من تضاد وبين ألفاظها من ترادف واشتراك ، إلى طائفة من قضايا النحو والصرف ، رآها مجالا للدراسة والبحث ، فأقبل يجيل النظر فيها ويستعرض مسائلها تحليلا ونقداً ، يرفده فى محاولاته هذه مواهبه المتميزة ودراساته المتعددة ، واطلاعه المتنوع .

ولم يكن يعوزه فى مواقف الاحتجاج وإصدار الأحكام أن يرجع فى الاستشهاد إلى القرآن الكريم والكلام المأثور من منظوم ومنثور ، وإلى أقوال العلماء ، من المتعربين والقدماء وهو فى دراسته وتحليله ، وفى نقده واجتهاده هادئ رصين ، لا يعنف

ولا يثور ، متزن الحكم ، منصف سمح ، صادق النظرة ، واضح العبارة ، عف — اللسان ، ولايجرى قلمه بما يسىء ، ولامايشين

وقد خلص من جولاته فى اللغة بآراء وتفسيرات محدّثة ، وافق عليها من وافق ، وخالف فيها من خالف . وكان يعلم أن العلم يتطور ويتقدم ، وأن الإنسان يعلم ويجهل ، ويخطىء ويصيب . لذلك كان كلما أعاد طبع كتاب — نظر فيه ، فغير وبدل ، وحرر ونسق . ولا يزال شىء مما قدّر له الاستقرار يحتاج إلى مراجعة ناقدة . ومن يدرى لعله لو نسأ الله فى عمره لجعله منه على بال ، ولعدل رأيه فيه .

أما مؤلفاته فتشتمل على طائفة قيمة من البحوث والدراسات ، ولا يتهيأ مثلها لغير ذي فكر مستنير وعلم غزير . ولم يتيسر لى أن أرتبها ترتيباً تاريخياً ، لكنها على كل حال تعد سواء فى شرف المنزلة ، وجلال السمت ، واستقامة المنهج ، لايكاد يبدو بينها فى ذلك خلاف ذو بال ، وهى :

١ — كتاب الأصوات اللغوية ، وهو كتاب يتناول بالبحث والدراسة الأصوات ومقاييس تصنيفها ومنهج القدماء فيها ، وكذلك موسيقا الكلام وتكون الأصوات عند الأطفال والكبار .

٢ — كتاب « من أسرار اللغة العربية » ، وهو كتاب يتناول بالدراسة والنقد عوامل نمو اللغة والإعراب وعلاقته بالمعنى ، والجملة فى أجزائها ونظام تأليفها .

٣ — كتاب مستقبل اللغة العربية المشتركة ، وهو بحث يقوم على رؤية كاشفة ، وضح للفقيد على هداها أن اللغة العربية صائرة إلى التوحيد ، لتكون لغة العرب جميعاً ثم يصف الحال التى يتوقع أن تكون عليها صياغة وأداء.

٤ — كتاب موسيقا الشعر ، وهو كتاب ييسر العروض ، فيجتزىء من مصطلحاته الكثيرة بما يشيع فى شعر المعاصرين ويعفيهم من مشقة الرجوع فيها إلى الكتب المستوعبة ، ويشتمل مع ذلك على ملاحظات طريفة على بعض آراء القدماء والمستعربين ، اعتمد فيها على علم اللغة الحديث .

٥ — كتاب « فى اللهجات العربية » ، وهو دراسة جادة متخصصة ، تتناول بالشرح والتفسير العلمى الحديث حال العربية قبل الإسلام وواقع اللهجات فيها ، وينظر فى القراءات من الناحية الصوتية ، وفى اختلاف الدلالة والبنية فى اللهجات .

٦ — كتاب دلالة الألفاظ ، وهو كتاب يفصل البحث فى أنواع الدلالات ، ويبين كيف تكون الدلالة عند الأطفال وعند الكبار ، وكيف تتطور مع الزمن ، ويشرح أثر الدلالة فى الترجمة ، ثم يتحدث عن أشهر

المعجمات العربية بترتيب عصورها . وقد نال الفقيد به جائزة الدولة التشجيعية .

٧ — كتاب اللغة بين القومية والعالمية ، وهو كتاب يبين عمل اللغة فى تكوين القومية ، وتوثيق صلة المجتمع بعضه ببعض ، ويبشر باللغة العالمية بفضل هذه السرعة المذهلة التى تؤديها المواصلات الحديثة ، تيسيراً للتخاطب على البعد ، وإذاعة للأنباء أسرع ما تكون ، ويرى ذلك إرهاصاً بظهور اللغة العالمية والقومية الإنسانية .

وللفقيد فوق هذا كثير من المقالات والبحوث ، نشر أكثرها فى مجلة المجمع ، أو ألقى على مؤتمره . وتدور كلها على اللغة فى أصواتها ، واللغة فى تاريخها ، واللغة فى صيغها ، واللغة فى إحصاء بعض مسائلها ، واللغة وحاجتها إلى معجم لألفاظ جاهليتها .

ويستطيع كل من يتحدث عن الفقيد وآثاره الفكرية — أن يقول غير مكذب ولا ظنين — إنه يعد حقاً وصدقاً من المعالم الشاخصة فى تاريخ الثقافة المعاصرة فى الوطن العربى كله ، بما قدم لها وأثرى حياتها من كتب وبحوث . أما علم اللغة الحديث فهو فيه الرائد الملهم ، والسابق المجلى ، بلانزاع ، ولا خلاف .

وقد لبث نحو عشرين عاماً يشارك مشاركة فعالة فى أعمال المجمع ولجانه ، خبيراً مندوباً ، ثم عضواً منتخباً . شارك فى المعجم الكبير ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز إلى مرحلته الأخيرة . وشارك فى أعمال لجنة الأصول ، ولجنة اللهجات ، ولجنة الألفاظ والأساليب . وكل إليه الاشراف على مجلة المجمع ، فلم يشأ أن يكون إشرافا من غير عمل ، ولا توجيها من بعيد ، بل جعله إشراف المباشر والمشارك فى الكتابة ، فكان يقدم بين يدى كل عدد موضوعاً طريفاً ، أو فكرة موحية .

ولم يفت المجمع أن يرشحه لجائزة الدولة التقديرية ، فكان للفقيد من ذلك وثيقة إكبار ، وشارة عرفان وتقدير ، سعت إليه خالصة له من صفوة منتخبة من أعيان العلم والأدب . وما أراه إلا قد ظفر بالجائزة إقراراً وتسليماً .

فحق له ولأهله ومريديه معه أن يقروا بها عينا . فما الجائزة فى واقعها الحق إلا الإقرار والتسليم . أما ما وراء ذلك فناقله لايضير فوتها ، وليس لأدائها فضل كبير .

وبعد ، فإن الحديث عن الدكتور إبراهيم أنيس متشعب ومستفيض ؛ وهيهات أن يتسع لاستعابه مثل هذا المقام . وقديماً قالت العرب : كفى من القلادة ما حف بالعنق . فلنترك إذن للبحوث الجامعية المتخصصة ؛ ولمؤرخى الثقافة المعاصرة حقه من الدرس والبحث كاملاً غير منقوص .

والآن ، لنُقبل نحن على الله تعالى بقلوب خاشعة وألسنة ضارعة ، نسأله سبحانه أن يجمل عزاءنا ، ويربط على قلوبنا ، وأن يتقبل الفقيد الكريم بأحسن القبول ، وأن يثيبه ثواب العاملين المخلصين ، أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين . إنه نعم المثيب ، ونعم المجيب .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الدكتـــور عبد الله درويش

●● عمـــيد كلية دارالعلوم :

السيد الرئيس :

السادة أعضاء المجمع :

سيداتى وسادتى :

ليس المقام فى هذا المكان المقدس مقام البكاء ولا الأحزان على الفقيدالكريم، وإنما لتدارس آثاره ، وإننى لعلى استحياء أقول شيئاً بعد الكلمة الجامعة الوافية التى سمعناها من أستاذنا الجليل ، الأستاذ على النجدى ، ولكننى سوف أركز على بعض آثار الفقيد وعلى العلاقة التى كانت تربطنا به بصفتنا تلاميذه وطلابه ، فعندما جاء إلى دار العلوم من البعثة ليدرس علم اللغة الحديث ، كانت الظروف مواتية فى ذلك الوقت ، نظراً لقلة عدد الطلاب ، فكنا أيامها لا نزيد عن الخمسين ، وكان أول شيء وضعه منهجا للدراسة فى هذا الفرع الجديد فى دار العلوم أن أشرك بعض الطلاب فى البحث ، فكان يكلفنابعمل إحصاءات من القرآن الكريم ، ومن معجمات اللغة ، ثم بعد ذلك يأخذ النتائج ويضعها فى أبحاثه . وأذكر أن المجمع عندما أصدر الطبعة الأولى من كتاب المعجم الكبير ، ذكر المجمع فى مقـدمته أنه يريد من الباحثين والدارسين أن يدرسوا منهج هذا الكتاب ، وكان لى الشرف أن أكون أحد أصفيـاء أستاذنا ، فكلفنى أن أحضر إلى المجمع فى الخمسينيات ، وأخذت أربعين نسخة من كتاب المعجم الكبير فى طبعته الأولى ، وأقمنا ندوة فى دار العلوم شارك فيها كثير من الأساتذة ، ثم وضعنا حصاد كل ذلك فى تقرير أودعناه فى هذا المجمع الجليل : وكان أيضاً فى ملاحقته للدور العلم لا يؤثر شيئاً عليها رغم المغريات بالمناصب أو بالمـال والجاه ، فكان يكره ذلك كل الكره ، وكان يخصص كل طاقته ووقته لكليته من الصباح المبكر إلى ما بعد الظهر ، وكان يقضى فى الكلية ١١ شهراً كل عام لايبرحها إلا فى شهر أغسطس وهو الإجازة ، ثم كنا نلتقى به فى داره ، وكلنا يعرف معمل الأصوات بالإسكندرية ، ويعرف أنه لبنة من لبنات أستاذنا ، ثم إننى لأعرج على كتبه ولامؤلفاته بالتفصيل فلذلك ندوة ستقام فى دار العلوم ولكننى ألاحظ أن الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس كان متواضعاً حتى فى اختيار عناوين كتبه فمن كتبه « فى اللهجات العربية » ولم يقل « اللهجات العربية » ، « فى أسرار اللغة »

ولم يقل أسرار اللغة ،وكان دائماً يبحث عن الفكرة الجديدة وينبهنا إلى أن هذه فكرة جديدة ، وأن علينا نحن أبناءه أن نذكر ما فيها من تفاصيل بعد ذلك ، فكانت توجيهاته توجيهات إجمالية . وكذا العباقرة تختص بالأشياء الكلية تماماً كما كان يفعل الخليل بن أحمد، كان يهتم بهذه الكليات ، ويترك التفاصيل لتلاميذه وكذلك كان أستاذنا الجليل فقبل موته بأسابيع حضر إليه بعض رواد علم العروض العربى واتصلت به وتناقشنا نحو الساعتين ، ثم قال له: هذا البحث جدير بأن يبحث على مهل .

وكان دائما يتمهل فى كل آرائه ، وفى كل مباحثه .

وإذا كان المقام فى الرثاء يفجر العاطفة أحياناً ببعض أبيات من الشعر ، فقد أملى علىّ الموقف عدة أبيات ولست أقول إننى شاعر ، فإننى تركت هذا الفن منذ زمن طويل ، ولكنها العاطفة المتفجرة من أثر الموقف الجليل وها هى :

يعز علىّ حين أجيل عينى
أقلب فى مكانك لا أراكا
لقد روعت ليلة دق ناع
يسائلنى : أتدرى ما أتاكا
هتفت بصاحبى : خطب جليل
أبى وأبوك قد لقى الهلاكا
على وضح الثرى أرداه غدر
جبان ، ليتنا كنا فداكا
لقد حملوك ما عرفوا مداكا
ولم يدر الأحبة ما دهاكا
فزعنا نرقب الجسد المسجى
نلى نظرة منه هناكا
فما كدنا نصدق ما نراه
وأن الموت قد ألقى الشباكا

* * *

لقد كنت العزوف عن الدنايا
وكنت مسالماً من ذا جفاكا
ولم يبهرك فى الدنيا ضياء
وكان صدى الحقيقة مبتغاكا
بكاك الخالدون شجى وحزنا
«ودار العلم» أشجى من بكاكا

كلمة الشـــعر للدكتور ابراهيم أدهـــم الدمـــردائش
عضو المجمع

ما للدموع إذا فرحت ترقرقت ... يرديه مكروب وأد غر صادمة

وإذا حزنت تفجّرت تفجيرا ... تلقيه مكسور الجناح حسيرا

هل قدّرت بالعدل دمعة فرحة ... يا قدرة المخلوق حسبك قدرة

قسطاً وقدّرت الأسى تقديرا ... (م)الخلاّق حتى تسجدى تكبيرا

أم أخفت السرّ الدفين لفرحة ... قد كنت تخشى أن تموت بعلّة

والحزن أفشت سرّه تشهيرا ... عوفيت منها واسترحت قريرا

خذ عبرة إن كنت تفرح مرّة ... حتى إذا وفّيت عمرك وانتهى

واحفظ دموعك للأسى تعبيرا ... أجل قضـــاه الله متّ كسيرا

قد يمكث الفرح الموقت لحظة ... فالموت لايدع السليم معمـــرا

والحزن يبقى دائمـــاً ومريرا ... لم يـــدر إنسان له إكسيرا

إنى عجبت لآلة قـــد صمّمت ... إن القوىّ مع الضعيف كلاهما

من فكرة وتطوّرت تطويرا ... يمضى طويلا عُمرًا وقصيرا

ضمّت جماداً لو أتتـــه سقاية ... يا من قتلتِ «أنيسنا» فى مجمع

يجرى ويرسل صرخة وزئيرا ... (*)الفصحى قتلتِ البحث والتحريرا

لم ترع للإنسان حرمـــة صنعه ... هل لا علمتِ بأن قتلك مؤمناً

بل دمّرته بقسوة تدميـــرا ... خطء نهاه الله كان كبـيرا؟

ما أضعف الإنسان لولا أنه ... نفس بنفس شرعـــة لكنّنا

قد علّم الأسماء والتفكيرا ... لانستطيع لآلة تكفـــيرا

قد كان « إبراهيم » حجة قومه
يجلو بآلات الحساب عسيرا
أحصى الحروف ونظمها فى نطقنا
حتى غدا بين الثقاة خبيرا
يا رائد البحث الحديث تحية
فاحت شذى من ذكركم وعبيرا
من يقتف الآثار فى أبحاثكم
يصبح بهديك عالماً نحريرا

أنشأت مدرسة « بدار علومنا »
تعطى على مرّ الزمان كثيرا
مهما تجاوزتُ المدى مترحّما
عدّ الدعاء لفضلكم تقصيرا
يا من رجعت إلى إلهك راضياً
يجزيك ربّك جنّة وحريرا

كلمة الأسرة ـ للدكتور عبد العظيم أنيس

شقيق الفقيد :

الأستاذ الدكتور رئيس المجمع / السادة أعضاء المجمع / سيداتى وسادتى :

أرجو أن تسمحوا لى أن أتقدم — باسم الأسرة — بخالص الشكر والامتنان ، إلى مجمع اللغة العربية — رئيسا وأعضاء — على موقف الوفاء النبيل الذى بدا منهم جميعاً إثر فجيعة فقد المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى الحادث الأليم الذى وقع فى شهر يونيه الماضى .

وإذا كانت وفاته خسارة لاتقدر بثمن للمجمع ولجميع الباحثين فى علوم اللغة واللهجات ، وهو الذى وقف حياته للبحوث الجادة وللتجديد فى هذه المجالات . . . فقد كانت وفاته المفاجئة صدمة عنيفة لأسرتنا ، لأنه كان رب هذه العائلة ، المشغول دائما بمشاكلها وهمومها ، المشير دائما بالنصيحة لكل أعضائها ، والساعى إلى الخير من أجل الكبير والصغير فيها .

ولست أستطيع — بعد كل ما قيل هنا اليوم عنه وعن مؤلفاته وبحوثه — أن أتطفل على هذا الجمع الجليل بشىء أعرف أنه لن يكون جديداً فى اهتماماته العلمية . فلم أكن غير واحد من قراء كتبه ، ولست متخصصا فى علوم اللغة حتى أبدى رأيا فى مثل هذا المكان الموقر .

ولكن اسمحوا لى أن أبدى بعض انطباعات عامة ترسبت فى وجدانى من طول معاشرته ، ومن هذه العلاقة الوثيقة التى تجمع عادة بين أكبر الأشقاء وأصغرهم .

[illegible] الدكتور إبراهيم فى قلوبنا [illegible] اللغة العربية واحترامها وكان [illegible] بالشعر والأدب ، حتى ولو كنا [illegible] تخصصات مختلفة ، وما زلت حتى [illegible] كان أيام شبابه يقرأ علينا [illegible] فى تنظيمها فى المناسبات السياسية [illegible] مراحل حياته التاريخية ، فنطرب لها أشد [illegible] ونسعد بها أعظم سعادة . . . حتى [illegible] وصلت إلى المرحلة التوجيهية فى التعليم [illegible] صويلا بين دخول الشعبة الأدبية [illegible] فى آداب اللغة العربية وبين دخول [illegible] رياضيات لأتخصص فى فروعها . [illegible] نصيحته — رحمه الله — هى الفيصل [illegible] أشار على وهو فى البعثة ببريطانيا [illegible] كلية العلوم للمحافظة على [illegible] الأدبية قدر الامكان .

[illegible] كانت أشد ما يشد انتباهى فى حياته [illegible] ولاؤه الذى لا يحد لعمله الأكاديمى وبحوثه [illegible] بعد إحالته إلى التقاعد .

[illegible] أذكر أننى ذهبت مرة لزيارته [illegible] فلم أجده جالسا إلى مكتبه مكباً [illegible] أو مراجعاً لشىء يكتبه . وكنت [illegible] أشفق عليه من هذا الإرهاق الذى كان [illegible] وهو مريض ، وعندما كنت [illegible] هذه كان يقول مبتسما : « إن هذا [illegible] هو حياتى الآن » . وعندما أصابه [illegible] منذ أكثر من عامين ظل يواظب على التردد أسبوعيا على مركز الحساب العلمى بجامعة القاهرة (معهد الإحصاء) على ما فى هذا من مشقة وعناء ، تشوقا إلى معرفة نتائج الجداول اللغوية التى كان يخرجها الحاسب العلمى (الكمبيوتر) له .

أما الأمر الثانى الذى كان يشد انتباهى فهو اتساع أفقه فى ميدان بحوث اللغة واقتناعه العميق بأن الحواجز التقليدية بين فروع المعرفة المختلفة ليست إلا حواجز وهمية فى كثير من الأحيان ، وأن العالم الحقيقى لا يستطيع أن يستغنى فى عمله عن الاستفادة من إمكانات الفروع الأخرى من المعرفة . ولعل دراسته بجامعة لندن سنوات طويلة هى التى غرست فى أعماق نفسه هذا الاقتناع . ومن هنا كان حرصه على الاستفادة من الدراسات اللغوية الأوربية مع اقتناعة بوجود فوارق أساسية بينها وبين اللغة العربية ، واهتمامه بمجالات المعرفة — كالإحصاء والرياضيات — تبدو شديدة البعد عن العلوم اللغوية ، وحرصه على الاستفادة من إمكانات الحاسب العلمى أعظم استفادة ، ومازلت أذكر أننى قرأت منذ أكثر من عامين فى إحدى المجلات العلمية البريطانية بحثا عن نموذج رياضى — احتمالى فى وصف بعض خواص اللغة الإنجليزية . ولما حدثته عن هذا البحث تلفونيا أصر على أن أذهب لزيارته

ومعى المجلة لأخلص له البحث . وعندما دهمت ناقشى طويلا فى الفروض اللغوية لهذا النموذج رغم جهلى الكامل بكثير من أسرار اللغات التى كان يتحدث عنها .

سيداتى وسادتى :

إذا كانت كتب الدكتور إبراهيم أنيس وبحوثه المنشورة شاهدا واضحا على هذا التفرد والتجديد الذى ميزه فى علوم اللغة ، فإن هناك جانباً آخر من إنتاج شبابه قد لايعلم الكثيرون هنا عنه شيئاً . . . أعنى شعره ومسرحياته التاريخية وروایاته،وإن أملى لكبير أن نستطيع نحن أعضاء أسرته أن ننشر هذا الجانب من مؤلفاته ، وأن يجد هذا العمل من المجمع تشجيعاً ودعماً .

إن علاقة المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس بالمجمع علاقة وثيقة وقديمة ، بدأت قبل انتخابه عضوا به بسنوات طويلة . بل لعلى لا أبالغ إذا قلت أن علاقة أسرتنا بالمجمع وثيقة وقديمة أيضا . وإن أملى لكبير فى أن نظل فى خدمة هذا العمل الجليل الذى تضطلعون به فى ميدان اللغة العربية على طول السنين .

وفى الختام أكرر الشكر — باسم الأسرة — لأسرة المجمع ولأسرة دار العلوم ولجميع من شاركوا فى هذا الاجتماع الجليل بالاعداد أو الحضور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

●● كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع:

لايسعنى فى ختام هذا الحفل إلا أن أشكر كل من شاركنا فيه وتفضل بالحضور إلى هذا المكان، وإنى لكلى ثقة من أن هذا كله ليس إلا أثراً من آثار فقيدنا الكريم.أسكنه الله فسيح جناته بقدر ماأسدى لوطنه من جليل الخدمات ، وعوضنا عنه خيراً .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٨ من ذى القعدة ١٣٩٧هـ الموافق ٩من نوفمبر ١٩٧٧ أقام المجمع حفل تأبين المرحوم الدكتور محمود توفيق حفناوى عضو المجمع .

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع
فى تأبين المرحوم :

الدكتور محمود توفيق حفناوى

سيداتى ، سادتى :

جرت سنة هذه الدار على أن تستقبل وتودع ، تستقبل الوافدين ، وتودع الراحلين . وكم فى الاستقبال من غبطة وبهجة ، وكم فى الوداع من أسى ولوعة . وفى الثالث من يناير عام ٦٣ ، استقبل المجمع بين ثلاثة من كبار العلماء ، شيخا من شيوخ الزراعيين هو الدكتور محمود توفيق حفناوى ، وحرص على أن يتولى استقباله علم من أعلام المجمعيين والشاعر الأول لعصره وهو المرحوم عزيز أباظة .

وقد وفاه حقه فى كلمة من كلماته الخالدة وقطعة من أدبه الرفيع ، حلل فيها شخصيته ، وعرف بمواهبه وعلمه وخبراته :

ونرجع بصلتى بفقيدنا الكريم إلى ماقبل ذلك بسنين ، فقد عرفته فى مجلسين من مجالسنا العامرة بالأدب والحكمة ، والتوجيه السديد ، والرأى الصائب ، والنقد النزيه ، وأعنى بهما مجلسى لطفى السيد ، وبهى الدين بركات .

وكان لتوفيق حفناوى فى هذين المجلسين نظرة ومكانة ، ولما يبدى فيهما من تعليق أو ملاحظة وزن وقيمة .

وكنا نسعد بلقائه ، ونأنس لحديثه ، ونحس بغيابه ، وليتنا عنينا بتسجيل قدر كثير مما كان يدور فى هذين المجلسين .

وزاملنا الفقيد الكريم فى مجمع الخالدين نحو خمس عشرة سنة ، وماكان أشبهه بالنسمة الهادئة واللفظة العذبة ، وماكان أصدق تعبيره عن النفس الزكية والروح الطيبة :

وقد شاء أن يقف جهوده معنا أساسا على علوم الأحياء والزراعة ، وهو أستاذها وشيخ شيوخها ، فانضم إلى لجنتها وعنى بلغتها ، وحدد مصطلحاتها ، ووضح مدلولاتها ، وأصبح فى هذه اللجنة رئيس مدرسة ، بين تلاميذه وزملائه .ورغب أخيرا ـ معبرا عن لجنته كلها ـ فى أن يخرج مما أقره المجمع معجما علميا متخصصا فى علوم الأحياء والزراعة ، ورحبنا جميعا بهذه الرغبة ، ويسرنا لها ماوسعنا وسائل الإنجاز والتحقيق . ولكن أبطأ بها الزمن مع الأسف ، ولم يقدر لمعجم علوم الأحياء أن يرى النور فى حياته .

وها نحن أولاء نودعه اليوم ، ومن واجبنا وفاء له أن نحقق مارغب فيه،وأن نخرج هذا المعجم على النحو الذى كان ينشده ، ولا أشك فى أن لجنة علوم الأحياء والزراعة ستنهض بهذا العبء ، وستؤدى الأمانه على وجهها .

أما وداعه فأولى به منى أحد تلاميذه وزملائه ، وسيقول كلمة المجمع فيه الدكتور محمود حافظ ، وتليها كلمة الأسرة على لسان السيد خليل محمود توفيق نجل الفقيد .

تغمد الله فقيدنا برحمته ورضوانه ، وجزاه عنا خير الجزاء .

كلمة الدكتور محمود حافظ عضو المجمع :

الأستاذ الجليل رئيس المجمع :

الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع — سيداتى وسادتى :

يشق على أن أقف اليوم لأؤبن فقيدنا العزيز عضو المجمع المغفور له الأستاذ الدكتور محمود توفيق حضناوى، وكان بالأمس القريب بيننا ملء السمع والبصر، عقلا راجحا وفكرا ثاقبا، ولكن هذه سنة الحياة؛ مانحن إلا ودائع فى هذه الدنيا تسترد فى ميقات يوم معلوم، وتمضى إلى الرفيق الأعلى لتحيا حياة هى خير وأبقى .

وكل حى إلى فناء، وكل نفس ذائقة الموت، ولكل إنسان أجل محتوم وقدر مقدور « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » صدق الله العظيم .

سيدى الرئيس :

يعلم الله كم أشفقت على نفسى عندما طلبت إلى أن ألقى كلمة التأبين عن الراحل الكريم لأنى استشعرت بالعجز عن الحديث عنه

كما ينبغى أن يكون الحديث عن رجل عظيم؛ فاست ممن يملكون ناصية اللغة والبيان لأعبر أصدق تعبير عما يعتلج فى الصدور من مشاعر الأسى، على فراق هذا الفقيد العظيم أو أصور لكم قدره الحق كرائد جليل من رواد الحركة العلمية فى مصر، أبلى أحسن البلاء فى ميدان العلوم الزراعية، وأدى لوطنه أجل الأعمال، وأنشا جيلا بل أجيالا من العلماء والزراعيين تفخر بهم مصر والعالم العربى .

ولكنى صدعت بالأمر وسأحاول قدر استطاعتى ومكنتى أن أقوم بمهمتى، وأستميحكم العذر إن أنا قصرت فى الإحاطة بكل جوانب هذه الشخصية الفذة وأعمالها الخالدة.

وإذا كان هذا المجمع الموقر قد استن هذا السنن الحميد؛ وهو أن يكرم أعضاءه الذين مضوا إلى رحاب الخالدين، وأن ينشر لهم صفحات ناصعة وضاءة من تاريخهم المجيد وإنجازاتهم الرائعة، لنستشف من خلالها الحكمة ونستوحى منها العلم والمعرفة، ونرى فيها المثل الرفيع والقدوة الصالحة، فإن المجمع بذلك يضرب أروع الأمثال فى الوفاء، فى زمن عزّ فيه الوفاء .

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى :

عرفت الفقيد العظيم قرابة عشرين عاما ولكن معرفتى به توطدت، وازدادت آصرة المودة والصداقة بيننا عاما بعد عام، وكان حينذاك قد أوصانى بابنه خيرا، والذى كان فى مستهل حياته طالبا بكليه العلوم يدرس علوم الحياة ، ثم تخصص بعد ذلك فى دراسة علم الحشرات ، وكان لى بمثابة الابن الروحى تعهدته بالرعاية العلمية والتشجيع المتصل لما لمسته فيه من مخايل الذكاء وصفاء الذهن والقريحة الوقادة ، وكأنه صورة مصغرة من والده العظيم ، وحصل ذلك النابغة على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف الأولى، ثم تابع دراسته العليا معى، فحصل على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى زمن قياسى، دليلا على نبوغه وتفوقه. ولا يمكن أن أصف فى كلمات كيف كان والده يتابع فى فرحة غامرة فلذة كبده وهو يدرج فى مدارج الرقى مرحلة إثر مرحلة، وكان يسألنى دائما عن مدى تقدمه كلما التقينا فى رحاب هذا المجمع، وكان يقول لى : إن ابنى توفيق هو الوحيد بين أبنائى الذى سلك الطريق العلمى والأكاديمى نفسه الذى مضيت فيه فى مستهل حياتى. وكان دائم الدعاء له بالتوفيق والسداد . ولم أره قلقا تنتابه الهواجس كما رأيته حين شد ابنه الرحال إلى نيروبى فى كينيا للعمل بالمركز الدولى لبحوث الحشرات وهو مركز يختار الصفوة الممتازة من شباب الباحثين النابغين، للقيام بالبحوث العلمية فيه ؛ لم أره قلقا كما رأيته فى تلك الأيام كأنه كان يقرأ صحف الغيب ويتوجس من شئ يحبئه القدر، وهو الذى امتحنه ربه قبل ذلك بسنوات، حين فقد وحيدته وحبيبته فى كارثة من كوارث الطيران، فكانت

نائبة كبرى من نوائب الدهر هدت من كيانه ، وعصفت بكل أركانه .

وكأن الأقدار لم ترحم هذا الشيخ المكلوم فامتحن مرة أخرى منذ سنة وبضعة أشهر حين فقدقرة عينه،ولده النابغةالدكتور توفيق بعيدا عن الوطن فى نيروبى، فىحادثة أليمة من حوادث السيارات، وهو الذى رحل إليها بغية الاستزادة من العلم والمعرفة — ويعلم الله كم أخذتنا الحيرة ونحن نفكر مع أسرته الكريمة كيف ننقل خبر هذه الفاجعة الأليمة إلى الفقيد، وقلوبنا واجفة ، ونحن نعلم شدة وقعها عليه كما نعلم كم كان هذا الابن أثيرا لديه، بل كان أمله المرتقب وأمنيته المبتغاة .

ولا أكون مبالغا إذا قلت: إن هذه النازلة التى نزلت بالفقيد قد عجلت بمنيته؛ فقد حطمت كيانه وقوضت بنيانه وأفقدته الرغبة فى الحياة وكان يردد بين الآن والآخر فى هذا المكان ونحن نتابع عملنا بالمجمع أنه برم بالحياة وسئمها ، بعد الذى نزل به من ملمات ولم أكن أدرى وأنا أشد على يده قبيل وفاته أنى أودعه الوداع الأخير وأن هذه الروح الزكية الطاهرة ستمضى إلى بارئها بعدقليل لتصبح فى ذمةالتاريخ ذكرى.

جرت عادة الدنيا بكل الذى نرى
وليس لها صرف لما تتعود
فصبرا وتسليما لكل ملمة
إذا لم يكن يوما عن الخطب مبعد

ولد الفقيد فى الحادى والثلاثين من شهر مارس عام ١٨٩٤ وتلقى أول تعليمه فى الكتاب شأن الكثيرين فى ذلك الزمان ثم التحق بمدرسة الناصرية ليتلقى تعليمه الابتدائى، ثم بالمدرسة السعيدية ليتابع دراسته فى المرحلة الثانوية ، وفى كلا المرحلتين كان شديد الإقبال على درسه جادا فىعمله يزينه عقل راجح ورزانة بادية وكان متفوقا على أقرانه. ثم التحق بعد ذلكبمدرسة الزراعة العليا ، ساقة إليها ميل طبيعى نحو العلوم الزراعية ؛ وتابع دراسته فى جد ومثابرة ومضى يرقى من سنة إلى أخرى ملفتا إليه الأنظار لنبوغة وتفوقه حتى حصل على دبلوم الزراعة العليا عام ١٩١٧ ، وكان ترتيبه الأول بين زملائه من الخريجين فى ذلك العام . وبعد تخرجه عين بوزارة الزراعة، وقضى بها أربع سنوات بالوظائف الفنية بمصلحة البساتين إلى أن أوفد فى بعثة علمية إلى جامعة كمبردج بإنجلترا عام ١٩٢١ وهناك برزت مواهبه وتفتقت قريحته وخلال السنوات الثلاث التى قضاها بتلك الجامعة العريقة بهر أساتذته بتحصيله ، وسعةاطلاعه وخلقه، وحصل فى النهايةعلى درجة تريبوس فى العلوم البيولوجية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٢٤؛ وهو العربى الوحيد الذى حصل على هذه المرتبة من هذه الجامعة على أرجح الأقوال .

وقد كتب أحد أساتذته بجامعة كمبردج يقول عنه: « كان طالبا ممتازا متمكنا أعظم تمكن من مادته، ذلك إلى جانب ما يملكه من قدرة وسعة تفكير يبلغان أعلى المستويات».

وعاد الفقيد بعد ذلك إلى الوطن فعين عام ١٩٢٤ مدرسا للمواد البيولوجية والوراثية بمدرسة الزراعة العليا، ثم كبيراً للأخصائيين بوزارة الزراعة (مصلحة البساتين) عام ١٩٢٦، وفى العام التالى عين أستاذا مساعدا لعلم النبات بكلية العلوم بالجامعة. وفى عام ١٩٣٠ اختير لكفاءته البارزة ناظراً لمدرسة الزراعة العليا، ولم تكن سنه قد جاوزت السادسة والثلاثين بعد، وعندما انتظمت هذه المدرسة فى عقد الكليات الجامعية عام ١٩٣٥ اختير الفقيد عميدا لها فكان بذلك أول عميد لكلية الزراعة بجامعة القاهرة، ولم تمض سنوات أربع حتى سعت إليه الوزارة فعين وزيراً للزراعة، وفى عام ١٩٤٤ عاد إلى وزارة الزراعة مستشارا فنيا لها، ثم أهلته مكانته العلمية الدولية وذيوع صيته كعالم زراعى من الطراز الأول إلى اختياره بعد ذلك مديرا إقليميا لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦، وظل فى هذا المنصب الكبير أحد عشر عاما يشغله بجدارة واقتدار.

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى:

تمرس الفقيد بالبحث العلمى والزراعى سنين طويلة، وأبلى فيه بلاء حسنا ونشر الكثير من البحوث القيمة؛ طرق فى بعضها آفاقا جديدة لم يسبقه إليها أحد فى مصر وكان رائداً فى أكثر من مجال من مجالات العلوم الزراعية، ويمكن القول دون مجاوزة للحقيقة إن أول بحوث علمية زراعية أجريت فى مصر بيد المصريين قد أجراها الفقيد، إذ لم ينشر أو يكتب قبله فى علوم الزراعة إلا مشاهدات أو مقالات أساسها الخبرة وليس العلم والبحث العلمى المدعم بالأرقام وقد نشر أول بحوثه منذ نحو ستين عاما ولم يمض على تخرجه إلا مدة وجيزة مما يدل على تأصل روح العلم والبحث العلمى فيه.

وبنظرة فاحصة لهذه البحوث يتبين أن الفقيد كان يضع يده على الموضوعات الزراعية البكر، ويتناولها بالدراسة الجادة والتمحيص الدقيق وشق فيها دروبا جديدة للباحثين من بعده، فبحثه عن الفلورا المصرية الذى نشر فى فى عام ١٩٢٢ هو أول ما كتبه مصرى لتعريف النباتات المصرية، وقد تبعه الكثيرون من الباحثين فى الفلورا المصرية التى لم يكن قد كتب عنها من قبل إلا القليل من الأجانب الزائرين، أمثال «دليل» إبان الحملة الفرنسية ثم «شوينفورت» «وسترا سبيرجر» منذ عشرات السنين، وقد تبع الفقيد الكثيرون فى تعريف

النباتات المصرية مثل « أوليفر » «وتاكهولم» ودارز ،وحسيب وغيرهم .

كما أن استنباط الفقيد لنوع جديد من اللوبيا المنيعة على مرض الصدأ وهو أخطر الآفات التى كانت تقضى على المحصول فى بلادنا كان أول استنباط لمحصول فى مصر ، منيع لاتصيبه الأمراض،ذى صفات خاصة مطلوبة . وقد مضى الباحثون إثر هذا فى استنباط محاصيل عدة لها صفة المناعة فاستنبطت أنواع القمح المنيعة على الصدأ وأصناف القطن المبكرة التفتح وغير ذلك مما درّ على البلاد فوائد جمة،ووفر ملايين الجنيهات كانت تذهب هباء كل عام ضحية أمراض النبات .

وفى مجال التعليم — تعليم العلوم الزراعية خاصة — كان الفقيدمعلما ورائدا ومجددا من الطراز الأول فقد خص مدرسة الزراعة العليا بعنايته البالغة عند ما ولىأمرها وعمادتها سنة ١٩٣٠، وبذل جهودا متصلة خلال سنين عدة لتطوير برامج الدراسة بها وأحوالها وكانت الدراسة بهذا المعهد تكاد أنتكون مقصورةعلى المواد العلمية الزراعية والتطبيقية التى اكتسبت بالخبرة والتجربة وعلى القليل من العلوم البيولوجية الأصلية لذلك لم يجد الفقيد بدا من تغيير هذا الوضع بأكمله وأدخل من المواد والموضوعات ماهو ضرورى لتفهم العلوم الزراعية وإرسائها على أسس علمية رصينة وحديثة ومن بين هذه المواد والمقررات العلمية التى أدخلها الفقيد فى الدراسة لأول مرة . أو المواد التى عمل على تطويرها : مادة الأراضى والمخصبات ، وكيمياء التغذية والكيمياء الحيوية والوراثة وتربية الحيوان والنحالة والصناعات الزراعية . وإنشاء وتنسيق الحدائقوالنباتات الزهرية وتصنيف النبات ، كما أنشا عددا من الأقسام الجديدة لهذه المواد وبذلك تحولت مدرسة الزراعة العليا إلى كلية زراعية حديثة تجرى البحوث العالية وتأخذ بأسباب العلوم الحديثة ، ولها من المقومات ماتواكب به مقتضيات العصر وتؤدى رسالتها نحو المجتمع على خير وجه .

كما عنى الفقيد بتنشئة جيل قوى من العلماء فى شتى العلوم الزراعية بالتنمية الذاتية من ناحية وبإرسال البحوث إلى أوربا وأمريكا للتخصص فى العلوم الزراعية المختلفة، وبذلك أنشأ قاعدة علمية راسخة وسد نقصا كبيرا فى بيئة التدريس والباحثين المؤهلين . ومامن أستاذ من من الأساتذة المرموقين بالكليات الزراعية أو فى معاهد البحوث أو الزراعيين البارزين فى مختلف القطاعات إلاتتلمذ على الفقيد . وقد أسهم هؤلاء بقسط كبير فى النهوض بالتعليم الزراعى، وبالبحوث العلمية الهادفة نحو تدعيم ثروتنا الزراعيةواقتصادنا القومى

وقد بلغ الكثيرون منهم مكان الصدارة بين العلماء والوزراء، وشغلوا مناصبهم بجدارة فائقة .

كما أن الفقيد هو أول من أنشأ قسم الدراسات العليا لدرجتى الماجستير والدكتوراه بكلية الزراعة بجامعة القاهرة ، وقد تخرج فيه الكثيرون من المتخصصين فى مصر والبلاد العربية .

سادتى الأجلاء :

عندما تولى الفقيد وزارة الزراعة منذ ثمانية وثلاثين عاما أخذ يسوس أمورها بحنكة بالغة ، ودراية كبيرة، وقام بأعمال مجيدة وإنجازات رائعة ، كان لها أحسن الأثر فى تنمية ثروتنا الزراعية والحفاظ عليها. ويجدر بى فى هذا المقام أن أذكر بعضا منها :

فقد لاحظ تدهور سلالات المحاصيل الزراعية ، خاصة القطن ، ووجد أن سبب ذلك هو زراعة السلالات المختلفة متجاورة ولذلك قسم الجمهورية إلى مناطق، وخص كل منطقة بصنف من أصناف القطن يزدهر نموه فيها ؛ وصدر تبعا لذلك قانون بتحديد مناطق زراعة أصناف القطن وذلك تفاديا لتدهوره وحفاظا على السلالات نقية دون خلط ميكانيكى أو تلقيح نباتى .

كما عمل الفقيد على تحسين صفات الحيوانات المصرية من حيث كمية الإدرار والدسم واللحم، وخاصة فى الأبقار والجاموس وذلك بتربية سلالات تحمل هذه الصفات كما شجع البحوث لاستنباط أنواع من المحاصيل منيعة على الإصابة بالأمراض . وكان الفقيد من أوائل المفكرين فى زراعة الفاكهة فى الأرض الرملية فى مصر وإخراج هذه الأفكار إلى حيز التنفيذ، بإنشائه مزارع أنشاص والجبل الأصفر وغيرها ، مما أضاف قدرا كبيرا إلى إنتاج الفاكهة وخاصة الحمضيات .

كما درس الفقيد مانحتاجه من المحصول الخشبى ووجه الأنظار إلى سد النقص من الأخشاب المحلية، فسن قانون الأشجار الخشبية مما أفاد البلاد فائدة كبيرة ، وشجع البحوث لانتخاب الأصناف الصالحة للتصنيع . وكذلك استقدم الفقيد الكثير من النباتات الاقتصادية والتى لم تكن معروفة فى مصر إبان رحلته الشهيرة إلى أندونيسيا وسيلان عام ١٩٣٣، وكتب فى ذلك مع بعض معاونيه تقريرا قيما نشر عام ١٩٣٥ وقد ذيله ببيانات مستفيضة بأسماء النباتات التى استقدمها من هذه البلاد النائية من بلاد الشرق الأقصى ، وقد أحصيت منها بضع مئات بين شجر وبذور، وقد كتب عن كل نوع وصفا موجزا للنبات ، تضمن

فائدته والهدف من استقدامه واسمه باللغة اللاتينية ،والتقرير مرجع علمى يعتد به عن نباتات هذه البقاع ، وقد أفادت مصر منه فائدة علمية وعملية .

وكان الفقيد من أوائل من نادوا باستخدام المياه الجوفية فى رىّ الحياض ريا صيفيا لاستكمال استغلالها فى زراعة محاصيل صيفية، بالإضافةإلى المحاصيل الشتوية التى تنتجها بالرى الموضعى .

سادتى الأجلاء :

قدّر المجتمع الدولى الفقيد حق قدره لخبراته الزراعية الواسعة وعمله الغزير فانتخب عام ١٩٤٦ مديرا للمركز الإقليمى لدول الشرق الأوسط التابع لمنظمة الأغذية والزراعة ، وهى إحدى المنظمات الدولية لهيئة الأمم المتحدة ، وظل يشغل هذا المنصب أحد عشر عاما طاف خلالها ببلاد الشرق الأوسط وأجرى دراسات رائدة عن نظمها الزراعية، ويسر لها الكثير من أمورها وسرعان ماانضمت هذه البلاد إلى المنظمة الدوليةوحصلت بجهوده على خدمة الأخصائيين لها، وقد فتح الباب على مصراعيه للعلماء والمتخصصين للعمل فى هذه البلاد واكتساب الخبرات بها ، وإفادتها فى الوقت نفسه من تجاربهم وخبراتهم . كما جعل الفقيد مدينة القاهرة مقرا للمركز الإقليمى للمنظمة الدولية ، مما أتاح لها أن تكون الإشعاع الزراعى لمنظمة الشرق الأوسط .

وإبان عمل الفقيد فى هذا المركز الدولى للأغذية والزراعة كان مما يشغل باله الزيادة المضطردة فى عدد السكان ، مع ضيق الرقعة الزراعية فى مصر ؛ فاتجه اهتمامه إلى موضوع تنظيم النسل كأحد الوسائل التى تساعد فى حل هذه المشكلة ، مستهدفا تحقيق مستوى معيشى مناسب لأفراد الشعب ، وكتب فى ذلك كثيرا ، كما ألقى محاضرة فى هذا الموضوع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بدعوة منها فى الثانى من فبراير عام١٩٥١ عنوانها « هل الإصلاح الاجتماعى يحتاج إلى تنظيم النسل فى مصر؟ » وقد نشرت هذه المحاضرة فى كتيب قيم استعرض فيه المحاضر زيادة النسل فى العالم ، والإنتاج العالمى من الغذاء وكفايته ثم تناول الموقف فى مصر والإنتاج المحلى والرقعة الزراعية وكفاية المحصول ، وبعد ذلك عالج الموضوع اقتصاديا واجتماعيا وركز على ضرورة تنظيم النسل ، واقترح الحلول العملية المناسبة لذلك.

سيدى الرئيس — سيداتى — وسادتى : شرف الفقيد الكريم بعضوية هذا المجمع الموقر — مجمع الخالدين — عام ١٩٦٢ وقد استقبله فى ذلك الحين رائد عظيم من رواد

الأدب والشعر هو المغفور له الأستاذ عزيز أباظة، ويطيب لى أن أنقل هنا سطورا من كلمته الرائعة فى وصف الفقيد؛ إذ قال: «إنه رجل أسنى الله حظه من قوة الحجة ومن سداد المنطق، يلقى بحجته الفاصلة هادئا كأنما هى حجة داحضة، ويصدع بمنطقه المستحصد مخافتا، ويظفر بالدليل من أقرب سبيل، ثم يدفع به إلى صميم مستقره دون ماانشغال بالحواشى أو تحف بالفضول كل ذلك فى غير تظاهر أو دعوى».

ثم بعد ذلك قال مخاطبا الفقيد: «إن المجمع حين آثرك فضمك إليه كان على بينة من أنه يشد أزره منك برجل لغة ونحو وبلاغه وأدب، وكان على بينة أيضا، وذلك على خلاف ما استقر فى أذهان العامة، من أن هذه المجامع ليست مقصورة على خلفاء الأصمعى وأبى عبيدة وسيبويه، ولكنها تقوم على جهود هؤلاء تظاهرها وتظافرها جهود العلماء فى ألوان العلوم كافة. ومن أجل ذلك لن يشق عليك المجمع ولن يكلفك أن تبسط له علمك ديابيج الحاحظ وعبد القاهر؛ ولكنه مقتضيك أن تحبل معارفك إلى معان واضحة؛ وذلك هو أسلوب العلماء».

ومنذ ذلك التاريخ وطوال خمسة عشر عاما إلى أن وافاه الأجل المحتوم ظل الفقيد العزيز يعمل فى لجان المجمع وجلساته ومؤتمراته فى همة لاتعرف الكلل، وقلما تخلف يوما عن اجتماعات لجنة علوم الأحياء والزراعة، التى كان فيها الركن الركين والرأى الصائب والفكر السديد وخاصة فى مصطلحات النبات والزراعة، لخبرته الواسعة وعلمه الغزير فى هذا المجال، وكنا نستعجل لقاء الأربعاء لنسعد بالاستماع إليه والإنصات له فقد كان رحمه الله حلو المعشر كريم الصحبة، نبيلا بكل معنى الكلمة، عالما بكل بكل معنى العلم.

وقد قامت لجنة علوم الأحياء والزراعة التى شرفنا بصحبته فيها — قامت بفضل جهوده وتوجيهاته بإنجاز نحو عشرة آلاف مصطلح فى علوم الحيوان والنبات والوراثة والزراعة، أضيف إلى هذا ما كان يحول للجنة من أسماء النبات والحيوان التى ترد بالمعاجم اللغوية التى يصدرها المجمع كالمعجم الوسيط والمعجم الكبير.

وكان رحمه الله دائم البحث فى القرآن الكريم لتحقيق أسماء النباتات الواردة فيه ويحاول معرفة مدلولها فى العلم الحديث، كما كان كثير الرجوع إلى دوائر المعارف وأعمال المستشرقين للاستزادة من المعرفة فى العلوم البيولوجية وتقصى الحقائق العلمية. وجمع طوال حياته مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العلمية والمعاجم اللغوية، ومنها أمهات الكتب القديمة فى علوم النبات

والزراعة ، وقد تفضل رحمه الله بإهداء بعض هذه الكتب إلى مكتبة المجمع ، كما زخرت مكتبة الفقيد بكتب أخرى كثيرة فى مختلف العلوم والآداب والفنون ، فقد كان قارئا مستوعبا ممتازا، وكان يطرق فى حديثه معنا أبوابا كثيرة من المعارف الإنسانية.

ومنذ نحو أربع سنوات كتب كتابا عن « مصر والعرب عبر التاريخ » ضمنه لمحات تاريخية وبيولوجية، وكان يعتقد أن التاريخ كان فى أول أمره سردا لفتوحات الملوك ومغامرات القواد، ثم أخذ المؤرخون يفسرون التاريخ بالنظريات الاقتصادية وهو اتجاه صحيح، ولكن هناك عوامل كثيرة أثرت فى التاريخ ، وغيرت من اتجاهاته فهو يقول : يعرف الذين درسوا بإعجاب معاوك الإسكندر الأكبر ونابليون وجنكزخان أن البعوضة أو البرغوت أو القمل بما نقلته من أمراض مميتة من أوبئة فتكت وقتلت من الناس والمحاربين أضعاف ما قتله هؤلاء القواد العظام مجتمعين، وغيرت مجرى الحروب وبالتالى مجرى التاريخ .

وبالكتاب عرض لما كان للمصريين من فضل فى ابتكار التحليل النفسى والعلاج النفسانى، قبل ظهور فرويد بمئات السنين، كما تناول الكتاب موضوع اختلاط المصريين بالعرب ونتائج هذا التهجين ، وبالكتاب لمحات تاريخية أخرى غاية فى الطرافة تعكس اهتمامات الفقيد بمختلف المعارف الإنسانية.

وقبل أن تدركه المنية بنحو عامين ناقش الفقيد معنا فى لجنة علوم الأحياء والزراعة فكرة هو صاحبها ، وهى أن طلابنا فى المعاهد والجامعات فى حاجة ماسة إلى معجم بيولوجى وسيط على غرار معاجم بنجوين، يتداولونه ويستعملون منه مصطلحات صحيحة أقرها المجمع فى علوم الأحياء والزراعة. ولما عرضت هذه الفكرة — فكرة إنشاء معجم من هذا النوع — على مكتب المجمع وافق عليها، وقد بدأ العمل لتحقيقها فعلا وتأمل اللجنة أن يتم إنجاز هذا المشروع الذى اقترحه الفقيد فى وقت ليس ببعيد .

ويجدر بى أن أشير هنا فى هذا المقام إلى أن اهتمام الفقيد بترجمة المصطلحات العلمية وتعريبها ووضع المقابلات الصحيحة لها باللغة العربية يرجع إلى أمد بعيد، فمنذ أكثر من خمسين سنة عندما عاد الفقيد من البعثة عام ١٩٢٤ وبعد تغيير الدراسة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية فى مدرسة الزراعة العليا

قام بترجمة المصطلحات العلمية الإنجليزية ونقلها إلى العربية، وألف كتابين في علم الحيوان وفى علم النبات باللغة العربية؛ فكان رحمه الله من أوائل من كتب عن هذه العلوم باللغة العربية فى معاهدنا العلمية.

وقد امتد نشاط الفقيد إلى بعض الهيئات والجمعيات العلمية فى مصر؛ فكان عضوا بالأكاديمية المصرية للعلوم ورئيسا لها ، وعضوا بالمجمع المصرى للثقافة العلمية ، كما انتخب رئيسا للجمعية المصرية لعلم الحشرات عام ١٩٤٠ ، وقد ظل فى رئاسته للجمعية قرابة عشرين عاما ، وكان كذلك من الرعيل الأول الذى أسس أول مجلس للبحوث العلمية فى مطلع الثلاثينات، والذى تحول بعد ذلك إلى المركز القومى للبحوث، أكبر قلعة للبحث العلمى فى مصر فى الوقت الحاضر ، كما اشترك فى الكثير من المؤتمرات العلمية المحلية والدولية ، وأسهم فيها بعلمه وخبرته .

وهكذا كان الفقيد ممن أرسوا قواعد النهضة العلمية فى مصر وساروا بها شوطا بعيدا نحو التقدم ، كما كان له دور كبير فى النهوض بثروتنا النباتية ، وجهود رائعة مذكورة فى الميدان الزراعى فى مصر بالفضل والسبق والريادة فهو أبو الزراعيين بحق وعميدهم وإمامهم :

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى :

إذا كان سجل أعمال الراحل الكريم زاخرا هكذا بهذه الصفحات الناصعة الوضاءة ، وإذا كان تاريخ الزراعة فى مصر حين يكتب سيكون الفقيد من معالمه الشاخصة ودعائمها الراسخة، فإنه أيضا كان على خلق عظيم .

كان طيب القلب دمث الطبع، رفيع النفس رقيق الحاشية عف اللسان، سمحا فى قوله وعمله، سمحا فى لقائه وحديثه، سمحا فى الشدائد؛ امتحن فى فلذة كبده فصبر وامتثل لقضاء الله، وامتحن حين عصفت به المقادير واستولى على أرضه التى فلحها وأصلحها وسواها وأنفق عليها كل ماله وجل معاشه فصبر، وامتثل لما خبأه له القدر وكان شديد الإيمان بالله وبما قسم له.

أستاذى الفقيد العظيم :

لقد مضيت هادئا إلى الرفيق الأعلى كما كنت هادئا فى حياتك؛ ولا أحسبك ودعت الحياة إلا راضيا، بعد أن قدمت لوطنك جلائل الأعمال ، ونشأت أجيالا من أتباعك وحواريك يترسمون خطاك ويسيرون على نهجك

ويواصلون رسالتك الخالدة ، ولن ننسى أيها الراحل العزيز أنك كنت لنا فى هذا المحراب إشعاعا وإشراقا ، نتحلق حولك ونستمتع بطلاوة حديثك ، وعمق فكرتك وأصالة علمك ورجاحة عقلك .

لعمرى لئن خطفتك المنايا
ووارتك تحت ظلام الحفر
فازلت فى كل نفس تعيش
عبيرا زكا وضياء غمر

رحمك الله رحمة واسعة، وأنزلك منازل الأطهار والأبرار ، فقد كنت فى الحياة نورا يهدى الناس سواء السبيل ، وستظل فى الممات ذكرى تنفع المؤمنين .

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الأسرة للمندس خليل توفيق حفناوى نجل الفقيد :

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا الكبير الدكتور رئيس المجمع :

السادة الأجلاء أعضاء مجمع الخالدين :

سيداتى سادتى :

أرجو أن تسمحوا لى، باسم أسرة المرحوم الدكتور محمود توفيق حفناوى ، أن أعبر عن عميق امتنان الأسرة لفيض اللفتات الكريمة التى أسبغها علينا المجمع رئيسا وأعضاء ، مشاركة فى العزاء ونعيا بالصحف ، ثم ختاما بهذا الحفل المقام اليوم ، ولاغرو فأنتم القدوة خلقا ، وأنتم القادة علما وأدبا .

ورغم ماكان يغلب الوالد من خجل ، وما يحاول أن يبديه من تواضع ، فإن الفخار كان دائما يغلبه بأستاذيته فى كلية الزراعة وعمادته لها، وفى عضويته وانتمائه إلى مجمعكم الخالد ، تلك للعضوية التى كان يرى فيها خير ختام لحياة وهبها قدر مااستطاع للبحث العلمى .

وليس من اليسير على من كان غير متمكن أن يخاطب أعضاء مجمع الخالدين الأجلاء ، أو ضيوفهم الذين تفضلوا بالمشاركة فى حضور هذا الحفل، وعلى رأسهم السادة أعضاء مجلس إدارة نقابة المهن الزراعية، لذلك أرجو أن تغفروا لى عجزى عن تقديم شكرى ، وشكر الأسرة لكم جميعا، فلا أجد ماأستطيع أن أعبر به عن اعتزاز الوالد بزمالتكم ، كما أعترف بعجزى

الدكتور رئيس المجمع

الدكتور محمود حافظ

دائما أن يقدم بحثا علميا ،

قد خلبته العاطفة ، ومن العسير

ف شكر ، وأجاريه فى الثناء .

وأدعو الله لكم جميعا صادقا مخلصا بطول العمر وموفور الصحة ، وأن تظل الشعلة التى تحملونها معلية لتأن لغتنا وعلومنا ، وضاءة متوهجة ، منتقلة من جيل لآخر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع:

الحفل لايسعنى إلا أن

خصين على مشاركتهم

الكريم ، طيب الله تراه

وأسكنه فسيح جنته ، بقدر ماقدم للوطن من عظيم الخدمات ، وعوضنا فيه خيرا .